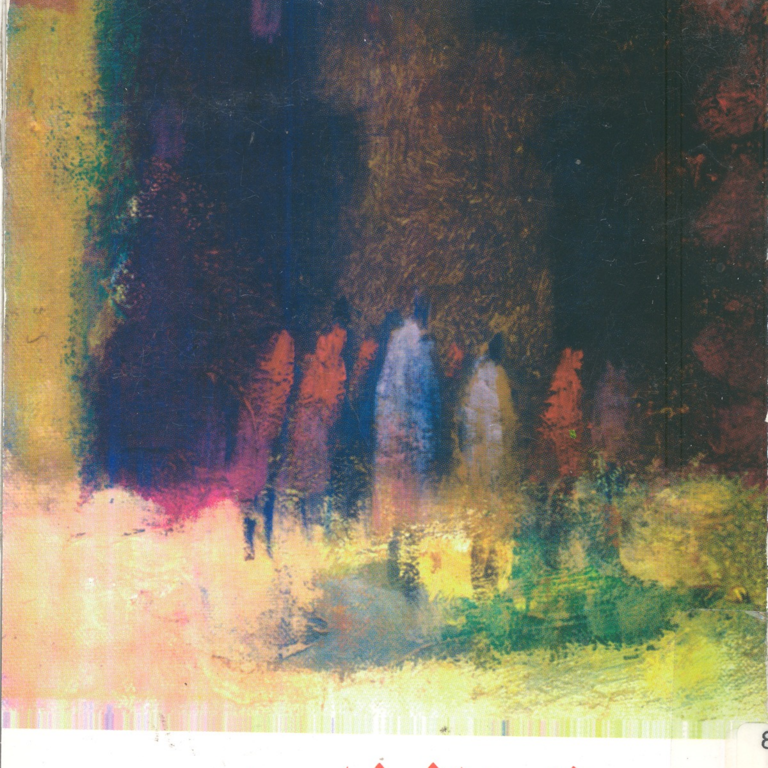


نار الزغاريد

أمير تاج السر

نـــار الـزغـــاريـد

أمير تاج الـسـر

الطبعة الثانية

رقم الإيداع: / ٢٠٠١

الناشر عزة للنشر والتوزيع

الخرطوم / السودان ص . ب ١٢٩٠٩

ت: ٧٨٧٢٠١ ـــ ٧٨٧٢٠٠

ف: ٧٩٠٨١٩

تنفيذ أفرو وجي للتصميم والطباعة

القاهرة ت: ٣٣٨٨٤٧٨ [illegible]

غلاف حسان علي أحمد

الى سوسن ابراهيم .. الزهرة المتفتحة أبدا في محيطي العائلي

في الوقت الذي يتمتع فيه العالم بأجمعه. بآخر منتجات تكنولوجيا صناعة الكتاب. شكلاً ومضموناً وإنتشاراً. ظل الكتاب السوداني رهين الأدراج والملفات والطباعة الرديئة. لا يحرك ساكناً بفعل أزمة (غريبة) للنشر والطباعة دامت لأكثر من نصف قرن من الزمان. وقفت عائقاً معقداً في طريق حركة الفكر والإبداع في بلادنا. وبلا شك ساهمت ضمن عوامل جوهرية أخري في حالة الإنعزال الثقافي التي نعاني منها. نحن أجيال التية المتتابع.

ورغم كل شيء ظلت سماء بلادنا تحتفل بميلاد النجوم كل مساء ..بجدارة المبدعين والمفكرين الأوفياء الذين ظل إنتاجهم يتواصل لفتح كوه تضيء قتامة العزلة الكئيبة التي عتمت المشهد الثقافي ثم الإنطلاق لمعانقة العالم والتواصل معه من أجل إقامة الحوار الإنساني المفتوح وهذا ما تهدف إليه دار عزة في مشروعها المتكامل لأداء واجب التصدي لأزمة النشر بالوثوق المطلوب إبتداءاً. وليس من باب التفاؤل (الساذج) ولكن ثقة في نفسها وثقة في المبدعين والمفكرين السودانيين / بمختلف تياراتهم ومنطلقاتهم وأجيالهم / الذين هم أول من تأذي من الأزمة. فمعاً سنبلغ ما نريد من مشروع عزة للنشر الذي سيتواصل من أجل المساهمة في ديمقراطية الثقافة والتثقيف. منبراً للتعدد والحوار الفكري الرصين ومن أجل آفاق جديدة للكتابة الإبداعية. ومن أجل أن يكون الكتاب ذو القيمة المعرفية العالية

منتجاً بشكل يتطابق مع فكرته جمالياً وجودة في الأداء الطباعي.

وفي متناول الجميع، أفراد ومؤسسات.

هذا هو المشروع الحر الذي تنهض به دار عزة للنشر الذي يتسم بحساسية مرهفة تجاه سماته الأولى التي تعني الحرية والتنوع والجمال الذي يشمل كل شيء وهي تشكل العصب الحي في كل ما تسعى إليه وتعمل من أجله المعرفة للجميع.

دار عزة للنشر والتوزيع

الخرطوم - السودان

الفصل الأول

-١-

• اليوم يفرز الثدي اللبن .

مقولة الجد التي تيتمت طفلة ... ارتعد لها من رأسه حتى عروق رجليه، وخطا إلى الثلـــث الثاني والأعنف من قصة الحب.

لم يكن هنالك نيلٌ متخثر الأحلام ليغرق في مائهِ ... لا ولا شجرٌ للنخيل تتسلقه المكابدات لتسقط من علٍ ... لم يكن هنالك لون ولا طعم ولا رائحة .. ولا لسان يلد الجد في كل يـوم عشرين مرّة ، ضغطت غازات العشق على مصرانه الغليظ , وحبت إلى واحة الذهن مقولـة لم تعد مضحكة ، رددها الجد (ميخا) بلا سبب في شأن العشق والعاشقين......

(إن أعجبتك امرأة وأعجبْتها .... فالتحما ببعضكما على برَكة (يسوع)، فإن لم تستطيعا فابكيا ، فإن نضب البكاء فاقتلا نفسيكما) .

في الماضي كانت الثرثرة ، و (سوشيلا) فتاة (الزاندي) وعرق (الفـولات) وفجيعـة الألغام ، والدموع الوطنية في الشرق والغرب والجنوب .... كان طحن الضعف ، وجرّ الإغاثـة ، وهياج العمائم في ملاعب كرة القدم ....

في الماضي كان تسميد الليل بالوهم .. والوهم بالليل ، وإطعام آكلي الليل والوهم وجبـلت منتقاة بعناد وفن .... وفي الساحة التعسة في قلـب (توجـار) حيـث لا يـزال ينبـض خزى(العُمش) ، وتصرخ الأرواح التعبة للمنتحرين (الجرابيع)، حيث أُديت صلاة الغائب على روح لا أحد ، وخسر (عبد الصمد) وجيشه آخر تفاؤل لترقية أوسمتهم القصديرية ، صـرخ واحد من أكثر الدماء إثارة في (توجار) ...الدم المبجّل (لألبيرت بشّاي) الإغاثي ...

– زوجوني تماضر إدريس .... زوجوني تماضر إدريس

-٢-

لا يذكر أحد بالتحديد متى بدأت عقارب الإغاثة تتلوى في رمال (توجار) ، لكن، أشـجار (المسكيت) المالحة ، ومواسم القحط وجنون الحكايا ، والبيوت التي اتخذت لون الماء العكـر ، وأغنيات الفوضى المتطرفة في حزنها وانتشائها ، لا زالت تلهث صوب تلك النافذة البدينـةالتي انشقّت ذات يوم في غبار (الإيتاب) الراطن ، ودخل منها (ألبيرت بشّاي) الإغـاثي بكـل جهامة الغريب وتراحماته ، وتكبُّده مشاق السفر ، واستوطن حتى صـارت تذكاراتـه علـى

الحوائط، وطريقته في اقتناص طيور (القيردون) وثرثرته الليلية في المطعم المفخخ (لعبد الرحمن خليمو) سمات كلاسيكية يتنفس بها الليل وتمجّدها القبائل وتعمل على ترميمها كلّما أحست بها تتهاوى .

كان كبيرا في كل شئ .

في هيكله الذي تغتاظ منه القمصان والبناطيل ....

في عينيه اللتين تحلوان الصدأ ، وتمسّدان ظهر البلدة وبطنها وركبتيها...

في لسانه الذي يلد المجد في كل يوم عشرين مرّة .

وفي ذروة الفوران الذي وُلد عند دخوله ، رضع منه ، وحبا ومشى وتكلّم معاصرا لاستيطانه، لم يلحظ أحد أن إحدى أذنيه ترتجف ، وأن في وجهه فخاً مبتسما ، وفيما بعد عندما سقطت الجميلة جداً (تماضر إدريس) في ذلك الفخ ، وسقط الإغاثي أيضاً ، أقسمت الأقاويل البيئية التي رصدت ما حدث ... أنها كانت تعرف ، وظلت الكريكابية (سعدية شاشاي) ترطن بلا توقف مغذية تلك الأقاويل إلى حد التخمة .

حين دخل الإغاثي كان الجفاف نجما ، تلألأ في أرصفة الحكايات، ومؤتمرات الأغذية والبدائل وكاد يسحب سلة غذاء العالم من فوق رقعة الوطن كلّه ، كذّب غبار (الإيتاب) عندما لوّث البلدة دون أن يغسلها كما كان يفعل في كل عام ، ووضع نمر (الميروك) عربوناً طفلاً على الدلتا وانصرف . كانت ثمة أخبار عن حرب وشيكة ، ودوافع إنسانية ، وقروض وفوائد وسلطات مجروحة تقطر من جرحها الثروات والمراسيم .... كانت ثمة أعيادٌ بلا حلوى، وليال بلا مرؤة ، وصباحات بلا قهوة ، ونساء يطرزن حنانا يابسا ومناديل بلون التفاهات ، وبزغت كلمة (لله يا محسنين) حتى صارت منهاجاً تجاريا وزراعيا ورعويا وتربويا ، ولهاثا مستدرا للعطف يلوّن به العشاق رسائلهم العاطفية . كان طبيعيا أن تموت النخلة ، ويتأوه

البرسيم ، وتسند الكلاب مؤخراتها على الحوائط حتى تنبح بأمانة وشرف ، كان طبيعيا أن تنقرض السحالي وتفكر اليرقات مليون مرّة قبل أن تتشرنق .

في البدء ظنّه (التوجاريون) شركاً نصبته إحدى الجهات لابتلاع البلدة، روّعتهم عرباته المخبولة وهي تتعرى من الأجولة والصفائح وزيوت الطعام ، وفساتين البنات .روّعتهم جرأته في منح السكارى خامات العرق ، والقتلة شهادات بحسن السير والسلوك ، والعذارى وسادات كُتب عليها ... صباح الخير يا حبيبي . استيقظت من رقدتها ذات الدهشة التي واكبت بناء (توجار) منذ قرنين من الزمان ، اختلفوا في فكّه وتركيبه وإلصاقه بالسلالات ، وفرّوا من يده التي ابتسمت لأنفه تافهٍ في البلدة ، وعندما شاهدوه يأكل ويشرب ويلبس من عرى عرباته ... سال لعاب القبائل لكنهم كتفوه . بغتة تشجّع لعاب صغير ، وتقدم (إدريس سعيداي) وكان يومها صبياً لم ينحر الحب عقله، ثقب عرى العربات برهة بنظرته الصبية ثم واجه الغريب.....

– هل عندك عجوة ؟

عند ذلك شم الغريب رذاذا من عطر (التوجاريين) ، ابتسمت أسنانه المتّبغة حتى خجلت من ثيابها البيئية ، اقترب من الصبي، دغدغ بطنه النامي بأصابع شديدة الحرص ، ورد على سؤاله الراطن بحفنة من حلوى (اللكوم) ومغلّف العجوة الوحيد الذي أحضره .

لم يكن (إدريس سعيداي) صبياً من الدرجة التوجارية الأولى بالرغم من كونه (إدريساوياً) ، كان واحدا من خمسة بذور أنضجتها (تمام الإثيوبية) في بطنها دون هويّات محددة لزارعيها ، كانوا في كل مرة تصرخ فيها إحدى البذور في البلدة يسألونها ... من أين يا تمام ؟ فترد بدموع فقط .. يعاودون ويعاودون ، وتبكى وتبكى . وكانت (الدايات) أكثر حكمة ، لم يكن يعصرنها أو يفتننها كن يحملن وليدها ، يطفن به في البلدة بيتا ..بيتا ، وزقاقا زقاقا ، يعرين خلقته في سكر السكارى ، ونزوات المحتشمين ، وخطوات المعلقة قلوبهم بالمساجد ، حتى إذا التقطن ملمحاً يمكن أن يُدخلن الوليد في دمه ... فعلن . وما أن تشم

الأقاويل البيئية طرفا من ذلك حتى تؤخذ التعهدات ، وترطن الأنساب ، ويدخل الوليد إلى الدم المختار رافعا صرخاته، ونتيجة لهذه الحكمة(الداياتية) والتساهل القبلي في النسب أحيانا ، كانت بذور (الإثيوبية) بعضها (إدريساويا) وبعضها (كريكابيا) ، و (دخوليا) وفيها واحدة لم يعرف لها أصل على الإطلاق .

كان سعيداي الإدريساوي هو الذي اقتيد دمه عندما صرخ إدريس، فتدروش الرجل غضبا ، اتكأ على بصره الشيخ ، وركبتيه (الروماتزميتين) وأحصر عدة نماذج من أقاويل بيئية ذات نفوذ ألفته من اشتهاء المشتهين منذ عهد ، أقسم أنه لم يسمع بإثيوبية يتوسدها الرجال في (توجار) . قالوا ....

- الطويلة ذات الشامة والزمام ... واللون الأبيض كاللبن .

قال ... لا أذكرها .

-تلك التي نسيها (كنعان العجوز) عندما نسي كتبه وخرائطه ومنظفات أسنانه .

-من كنعان العجوز ؟

-ذلك الجغرافي الذي أقسم على اكتشاف منابع غير معروفة لنهر(المبروك) وقعد في البلدة تسعين يوما ثم خرج ناسيا حتى صديقته الإثيوبية ، وتاركا قسمه الذي لا زال موجودا .

- لا أعرفه .

إعتبروه صبيا يستحق أن يسلخ لسانه وتصبغ شيبته ، وتُقتلع أضراس العقل من بين فكيه لتزرع في فكين أكثر حكمة ، فلم يكن (كنعان العجوز) سرا، فعلى مدى تسعين يوما قضاها في البلدة ارتكب أكثر خمسين من حماقة وخطأ جعلت منه قدوة للخطائين في البلدة، بدءاً من غسل جواربه بحامض الكبريتيك ، وتسلقه لظهور الحمير دون دراية ونومه القيلولة تحت الشجر (المعقرب) و (المثعبن) وتفرسه لأكثر من دقيقتين في وجه (أُوكير التالابي) وغرسه لزهور الجهنميات في بلدة غبارية ، وانتهاءً بمناداته للعمدة (إدريس إدريساي) بالعم (درّوسة) دون

مراعاة لتقاليد عمرها قرنان من الزمان . وكان خطأه بأن غمز بعينه للكريكايية (سعدية شاشاي) وهو تحت تأثير عقار الهلوسة وحده كفيلا بجعله أكبر خطّاء على ظهر الكرة الأرضية .

وفي الجلسة القبلية التي عقدت لسعيداي الإدريساوي بعد ذلك ، سُمي أبا إدريس ، أُلزم بتغطية الصبي بالأبوة وتغطية نفاس الإثيوبية حتى أربعينها المجيد .

قال الإغاثي وهو يلقى للبلدة بالصبي المحمّل بالعطر ...

– ما اسمك ؟

– إدريس سعيداي إدريس .

في مساء اليوم نفسه كانت عربات أشد خبلا تتعرى من العجوة جاعلة من (ألبيرت بشلى) الإغاثي أجمل شرك تشتهى كل التناقضات أن ينصب لها ، دخل في المونولوج الشعبي ، وثقافات المجالس ، وإكرام الضيف ، ورسومات الملل على كراريس التلاميذ ، وصفه شعراء محليون (بجمل الشيل وعدّال الميل) واستحى آخرون أن يموت بصمت فيما بعد ، فرصّعوا موته القادم بالبكائيات .

غنى فرج الإدريساوي ....

(ألبيرت الإغاثي سلام عليك ألبيرت .

نحن ضيوف عليك وإنت صاحب البيت.

توجار الصفائح فيها كبّت زيت .

وجمل الشيل برك واتلملم الشتّيت .

معروف في الخلائق ماكا داير صيت .

بس بنقول حبابك يا حباب ألبيرت .

كم سريت قلوبنا وللحبال شديت .

وأديت القبائل حقها ووفيت .

سوولوا الغنى ووقلوهوا في الدوبيت .

مرحبتين حبابك يا حباب ألبيرت) .

وبكى أركة الهيلباني .....

(إنخرمت عوينات الرجال وانهدّوا .

يوم جانا الخبر ألبيرت راحت يدّوا .

وين الكان بتاوق للخشوم ينسدّوا .

ويعرق في التراب شان العيال يتغدّوا .

الليلة الخبر منشرى فايت حدّوا .

ومثلك ياصباح الخير قليل يتعدّوا .

لو نقدر نرد الجاك كنا نردّوا .

لكين الزمن أهواله ما بينصدّوا .)

كان (طه الأعمش) شاعر العُمُش الثمانيني قد أقسم قبل أربعين عاما على قتل شيطنة الشعر بعد أن خدشت قصيدته (في حب عشمانة) ،التي لعلع بها ذات يوم وهو مصاب بارتجاج في المخ إثر سقوطه من حمار ، حياء ثلاثين عشمانة في البلدة موزّعات على لحم القبائل ، وجعلت تفاصيلهن الراكدة تحت الطِرح والفساتين ، نهباً لتخيلات الكبت والمراهقة ، وخامات غنية لمطابخ الأقاويل البيئية ، مات بعضهن تأزما ، وارتدت أُخريات ثياب الكُره

والضرب والطلاق ، وتحركت القبائل مجتمعة لأول مرة لتفسد على قبيلة العمش بكاءها التاريخي وأحلامها المعاصرة، جُلد رجالها في وسط البلدة بقعور السياط ، وحُرمت على أمزجتهم النشوة وريالة (التمباك) ، وأُقيمت لنسائها الجريحات زيجات جماعية شحاذة ، بلا مهور ولا كسوة ولا رجال بسندون الظَهر , وترتب على تلك الحادثة أيضا ، أن تشكلت في البلدة عاهة موسمية شرهة ، لم تشبع طيلة أربعين عاما ، هى عاهة (ضرار الإدريساوي) عم(الأدارسة)، وخال (الهيلباب)، وزوج إحدى العشمانات ممن متن تأزما .

كان (الأعمش) يبتلع بلغم الشعر كلما أحس به يتقافز على حلقه حتى صارت وجباته البلغمية تنافس الطعام في البلع والهضم والامتصاص ، لكنه عندما استلم (أدلفان الضغط) و (داونيل السكري) و (بروفين المفاصل) و (ساكوبيس) الموت والجنازة ، بكت ثمانينه شعرا شيخا مشى على عكازتين من الألم والانفعال متخطيا بالإغاني عشرات الخُطط والتعصبات ، وهمسات الليالي ، واحتلال المدن والإذاعات ، وصياغة الخطابات على عجل ....

(عاصرنا الحُكُم لامن فقد معناهو .

ودقينا الطبول للأزهرى ووزراهو .

وكل من نطّ في الرأس الغشيم نبراهو .

مثل ألبيرت أبدا ما أظن نلقاهو .

الراجل الضكر ضيفنا في توجارنا .

أدانا البكفينا ويصبِّر جارنا .

ما قصّر وحات الله وخلب أنظارنا .

مرحبتين حبابك عشَرة يا ضو دارنا .)

لأول مرة في تاريخ خطورته الطويل الذي امتد قرابة الستين عاما ،مزّق فيـــــها الســـكون وخاطه، وأماته وأحياه ، بكى (أُوكير التالابي) زعيم قبيلة (التـــالاب) ... بكـــى بدمـــوع شرارية تساقطت من عينيه الناريتين كأنها زخاتٌ من مطر مجمر ، كان الزعيم الـــذي تشـــكره السجون لإمدادها بخامات الإصلاح والتهذيب، والمستشفيات لإسهامه في تدريب الكـــوادر ، وقيادة أركان الجيش لإرساله خمسين (تالابيا) أُسست بهم كتيبة (العيون الحُمــــر) ، ذات الريادة في قمع الفتن ، والحائزة على أفضل أوسمة بلهاء في تاريخ الجندية على الإطلاق ، كان قد اكتشف أن قبيلته بلا شاعر يغنى أو يبكي أو يتلعثم في حضرة الشعراء ، اكتشف أن قبيلته تحيـا بلا ضحك ، وتموت بلا دموع ، تفطم صغارها بإرضاعهم الحنظل من ثدي الصحراء ، وتتغزل في الحسن والجمال بطلاء الأظافر بالدم ، وترقيص الخناجر في وجوه الجميلات . كان تراثـــهم كافرا في نظر التراث ، وسراويلهم وغدة في نظر السراويل ، حتى إبلهم ونعاجهم كانت شديدة البطش بالعشب وتدُر لبنا مخنجرا ، وفي إحدى المرات شرب ضيوف من إحدى القرى المجـاورة لبنا استخلص من إبل تالابية ، فظلوا طيلة الليل يترفون ، همست الأقاويل البيئية في أذن الجغرافي (كنعان العجوز) عندما بدأت أحطاؤه تتضفر .....

– ضع عينك في منقار ديكٍ ... ولا تضعها في وجه أُوكير .

فلم يسمع .

وفي ذلك اليوم أقسم العجوز وأقسمت البلدة كلها معه أنه عندما دخل (توجار) لم تكـن في أطرافه أظافر على الإطلاق .

وفي إحدى السنوات تفلسفت ثلاث مراهقات (تالابيات) كـــنّ يتعلمـــن في المدرسـة الابتدائية ، لطخن تراث القبيلة بشذرات من الذوق الراقي تعلمنه من مدرّســـتهن (عواطــف المجذوب الإدريساوي) ، قلن لآبائهن ... صباح الخير ، وقبلن أمهاتهن على جبـــاه الأُمومـة وابتسمن للزعيم وهو يشخر ، ففتكت بهن شخرتهٌ ، قُلّمت أظافرهن التعليميــــة ، وزُوّجـــت مراهقتهن إلى ثلاث شراسات أستدعيت على عجل من كتيبة (العيون الحُمر) . ولعل ما مُنيت

به الكريكابية(سعدية شاشاي) خلال ست ساعات قضتها أنوثتها المنبوذة رحاليـــاً منفـــردة بشهوة الزعيم غير المؤرخة(أقاويلياً) من قبل ، كان من شأنه أن يكبِّر من سن الخوف عنـــد القبائل ، فيقذف به إلى النضج ,

تلك اللحظة عندما بكى الزعيم اجتاحت البلدة موجةٌ من الرقة، أصبح الهواء رقيقا والنـــاس رقيقين ، وكاد (التالاب) يعقدون اجتماعا طائشا لاختيار خطير جديد .بغتة لملـــم الزعيـــم خطورته القديمة ، شخر بها والتفت إلى تراثه القبلي ، وفي أسرع من هش الذبابة ، نهب التالاب شاعرا رومانسيا من إحدى القبائل الهشة ، ألبسوه قميصا تالايا وســـروالا تالابيـــا، ونحـــروا غرامياته القديمة بخنجر تالابي ، وعندما بعثروه في فوران البلدة، كان ترحيبه فتّاكا إرتعدت لـــه إغاثة الغريب ، وأحست عرباته برغم خبلها إنها أهينت .

(مرحب بي أبوك وأمك وحبّوباتك .

وقطاع الطرق النهبوا من عرباتك .

يا فخر اللصوص أدينا من سرقاتك .

وضوّقنا الغنائم الله يلعن ذاتك .)

لم يتمهل التالاب حتى يكمل شاعرهم (المتلّب) حديثا ترحيبه ، إكتفوا بوجبـــة ســـريعة أحسوا أن الغريب يجاهد في بلعها، سلخوا عن الشاعر جلده التالابي ، أعادوه إلى قبيلته الهشـــة عاريا. ثم توغلوا في عُرى العربات ... قال الزعيم (أُوكير) وهو ينتشي بجرعة مكثفة من زيت (كبد الحوت) .....

– أحضروا عرقى السمك كله ... نريد أن نسكر به الليلة .

-٣-

كان اليوم التالي هو الجمعة المغاثة بعنف ، أُحليت ألعاب (البلى) و (الجِحلة) و (كـــش الولد) و (السلك سك) من عالم الطفولة التوجاري ، وحـــاضرت ألعـــاب (الليـــدو) و (المتاهات) و(السلّم والثعبان) ، كأول ألعاب مثقفة تحاضر في تلك الجهات، رطنت القبـــائل رطاناها الشبعانة ، وقذف المتعاركون بعضهم البعض بأحولة اللقيـــق وعلـــب (التونـــة) و

(الماكريل) وهم يتحشأون , مشى (إدريس إدريساي) في البلدة بعمودية مرفوعة الـــرأس ،ووقف الإمام (إدريس أحمد) في صلاة الجمعة كأنه يقــف في منبــع ، تعطلــت سماعياتــه (الأزهرية) ، وتحركت خطابته الراكدة في عهود السلف الصالح تحركاً عصرياً ، لتصبح وتمسى وتبيت في شخص الإغاثى ، كان لسانه طلقا طريا ، كانت عيناه مشعتين وقد بـــدت غدتــه الدرقية في مقدمة عنقه سعيدة للغاية وهى تلكزه وتمده بعناصر النشاط ....

- بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ...

أيها الإخوة ...

إلى ألبيرت بشاى الإغاثى .

سأحنى هامتى وأذل رأسى .

له سبق الشهامة والمعالى .

ويعطى دون منّ أو سؤال .

أيها الإخوة ...

انظروا إلى وجوهكم اليوم وتخيلوها كيف كانت بالأمس....اسألوا نساءكم وعيالكم .. انقروا على بطونكم .. اسألوا الحشا والمصارين .. كلهم سيعترفون بالجميل لسيّد الجميـــل أليرتبشاي ، سيقول البعض منكم أشياء تافهة .. وسيخترع المغرضون ما يخترعونه .. لكننـــا مهما قيل وسيقال لا يسعنا إلا أن ننحنى مع كل تجشؤة شبعانة تخرج منا ... إلخ .

كان المصلون ينصتون وهم مغائين في عمائمهم الأنيقة ، تفوح من عقيدتهم رائحة الشــبع ، وترطن جلاليبهم وسراويلهم بلغة لامعة ، وما أن حل العصر حتى كانت عائلات متشابكة مــن القمامة الراقية تدفن تباعاً في رمال (توجار) .

حكّت جلد المساء رائحة العرق المغاث ، ابتهجت الأخشاب بإيقادها جمرا بعد كبت ، وكتبت حروف البن البرازيلي على فناجين القهوة ... شكرا لألبيرت ...

قالت المشاعر والثياب الملوعة ، وأثداء الأمومة والأمزجة....

قالت الشهوات .. شكرا لألبيرت .

شهقت بعوضات (الأنوفليس) من طعم الدم اللذيذ ، ووقفت الأقاويل البيئية حابسة أنفاسها حتى لكزتما الكريكابية (سعدية شاشاي) .

كانت امرأة بكثافة الرمل ، لها في كل عمر حكاية ، وفي كل خطوة تكتبها في دروب البلدة حروف ملعونة ، لدرجة أن قبيلة(الكريكاب)التي تنتمي إليها دما عن لحم تناست مجد والدها ، نفّضت ثيابها منها ، قال كبيرهم (عوّاض) ...

- إن دودة القطن تنتمي لديدان القطن .

وبكى ... فأصبح بكاؤه مثلاً .

فعن طريق سعدية شاشاي كان يُحسد الشعر الطويل والمسبسب ، تثقب المخبئات خباءها لتمشي في البلدة ، وتكتهل المشاريع العاطفية وهي في المهد لا تزال ،هي التي استلمت(سرور ود طاهر الأمدرماني) ولخصته أقاويليا يوم قدومه إلى (توجار) وأشهرت الإمساك المزمن الذي يعاني منه مستقيم العمدة (إدريس إدريساي) حتى صار أشهر إمساك في البلدة كلها وصارت أعشاب (السنمكة) والطحالب الفقيرة وملينات النعناع ، تتطلع إليه بشغف ، وتطارده بخدماتها كلما سار في البلدة وشكلت من صاحب الحماقات (كتعان العجوز) عشرات الوجبات الأقاويلية لأنه اشتهاها ، غمز لها بعينه وهو تحت تأثير عقار (الهلوسة) ظاناً إياها إحدى المليحات .وفي أحد الصباحات كبرت الكلمة التي غسل بها الإمام إدريس أحمد وجهها لتدهس هيبته وزواجه ، وتكلفه عشرات النوافل والليالي الباكية استغفاراً

كان عمرها ستة عشر عاما عندما اكتشفها والدها (شاشاي الكريكابي) الذي كان خبيراً في اقتفاء الأثر تراهن به (الكريكاب) ، تسميه اليتيم كناية عن تفرده وإبهاره وتقسم أنه قادر على اقتفاء آثار الهمس ، والنوايا العكرة ومهارات اللصوص مهما عظُمت .

كان يقول ببساطة .....

- هذه آثار (موسى الأعمش) وهذه آثار أم عياله وهي تسنده على ظهره، سيروا على مهل، لن يأكلا الدخن الآن لديهما شئ آخر.

وكانت كلما تحدثت موهبةٌ لمقتفٍ للأثر في البلدة ، أخرسها (اليتيم) ، حتى صبت كل حاجات القبائل في يتمه ، وأصبح اللصوص ينفقون الليالي في لعب (السيجا) ، و (كش الولد) و الكن-كان) وتحول بعضهم إلى شعراء وقصاصين وعشاق أيضا من شدة الملل .

ذلك المساء كان (الكريكابي) متوهجاً ، كان مستلقيا في بيته وقد ركضت في مخيّلته ثلاث كريكابيات فاتنات ، كان يستوقفهن واحدة بعد أخرى ، يحاورهن ويحاورنه ، تمهيداً لملء فراغه الأرمل بامرأة طازجة لا تشبه سابقتها بأي حال من الأحوال . استعصت عليه التفاصيل ، واختلطت في مخيلته الأجساد والعطور (الشاكوينية) ، ووجد الفاتنات الثلاث يتعاركن ويتصارعن على الشهوة حتى أطمعنها فيهن كلهن . نام تلك الليلة مسحورا وفي الصباح أفطر على عجل وخرج .

طرق على باب الأولى فصدته الزغاريد الخاطبة والثانية ، فصدته الزغاريد الخاطبة ، وعندما زحف حتى باب الثالثة ، وجد بمحة العرس منصوبة ، ولفح وجهه رذاذ من عطر (الشاكوين) جنّ فراغه الأرمل ، فارت خبرته اليتيمة ،عاد إلى بيته ، استلقى على شقاء البارحة نفسه وبدأ يتتبع ، حتى عرف أنه لم يكن يتيماً أبدا ، وأنه ورّث جنونه لإبنته (سعدية شاشاي) .

ناداها بصوت خلوي شرس ، نزع أبوّته بهستيريا المتوحمات، وبفداحة قطّاع الطرق ، ألقى بها على الأرض ودهسها، قال ,,,

- من أنا ؟

قالت .. أبي شاشاي .

قال ,,, بل عدوك شاشاي .

أخذها إلى سوق البلدة مكحّلة بكحل الحجر ، ومزينة (بالعكش)ومعطرة (بالشـاكوين) على رأسها (قرمصيص) منهّب ، وعلى يدها اليسرى خاتم ودبلة ... نادى....

- يا أهل توجار .

لبت نداءه الطرق ، ودهشات البيوت ، والأرزاق ، وتبعها العمـــى والطرشـــان ، ظنـــوه سكرانا من شدة احمرار عينيه ، وارتعاشة أنفه ولهاث رئتيه ، وغنـــاءات الزُغُظـــة في حلقـــه ، وتسكع (البهدلة) على جلده ، وعروق رجليه ، تكاتفوا على صوابه ، أوثقوه إليه بصعوبـــة شديدة ، قال بعضهم .. يا عم ... قال بعضهم ... يا خـــال واكتفـــي العمـــى والطرشـــان باستفسارات العجز والعاهة .قال ..

- هذه ابنتي سعدية ... تأكل كالأرضة وتشم كالقطط .. من أرادها زوّجناها له الآن بـــلا مهر ولا شروط .

فانتفضت الدهشات مبتعدة وتبعثرت الحياة التوجارية من حوله.

عندما بلغت الخامسة والعشرين ، وهو على فراش الموت تختصم على جسده العلل ، وتقتتل الأمراضَ الحادة والمزمنة للفوز بإسكاته إلى الأبد ، صفّق اليتيم بيديه ، عرفوا أنها صحوة الموت، لبوا نداءه بعجينة (الدخن) وتلاوات الوداع ، وقليل من اللبن والسمن والزلابية ، وجـــهزوا نعياً ودموعاً وقبراً ومراسم تشييعية تليق بتاريخه .احتقر تهافتهم على تمجيده وطلب نسخة مـــن لعبة(الكرتِلة)التي كانت أكثر ألعاب الحظ استعارا في تلك الأيام ، جاءوه بها ، تأمل رســومالها المائة على عجل ، ثم طلب منهم أن يطوفوا بها في البلدة معلنين عن جائزة كبرى للذي يربـــح. امتلأت (الكرتِلة) في ظرف ساعتين ، وكم كانت دهشتها عظيمة عندما اكتشفت أنها لُعبـــت

(لسعدية شاشاي) ، إبتل كرتونها المصقول بدماء العراك ، فاحت من حظ صاحب الحظ أنّـة جريحة ، واضطر (الكريكاب) إلى حجب الجائزة وتعويض المشاركين ، ودفن يتيمــــهم بــلا غسل .

وفي أحد الأيام رطنت الأقاويل البيئية بكلام لم يصدقه (التوجاريون) أبدا ، واستمروا في عدم تصديقه حتى بعد أن شاهدوا (أوكير التالابي) مخضّباً بالحناء ومرصّعا (بالضريرة)وقـــد توارت خطورته قليلا وزاحمتها عشرات التتوات المحتفلة ، تزفه قبيلته إلى بيـــت (شاشـــاي) .ذلك اليوم تجشأت السجون من شبع المشاكل ، تدربت عدة كوادر طبية في مستشفي إقليمـي قريب ، أجهضت إمرأتان تالابيتان من جراء الدغدغة المبتهجة لمراسم العرس، تعطل الافتتـــاح الرسمي للمدرسة الأولية نسبة لاختفاء مقاعد الدراسة، أكمل الخريف تقيّأه وهو ذاهل ، ملـت سكاكين الجزارين وقدور الطبخ ، ومفاصل الدواب المعلّقة علـــى (الرواكيـــب) ، أحـب الكثيرون وتزوج الكثيرون على هامش الزواج الخطير . وفي ذلك اليوم سُمحَ لنسبة ضئيلة مـــن الذوق الراقي بالتسلل إلى تراث التالاب ، حيث تناول المدعوون حصصهم مـــبن مرطبـــات (الحنبك) وعصيدة الدخن ، واللبن (المخحوج) في أوعية نظيفة تبرع بها أحد (الأدراسة) وهو كاره ، أيضا سُمح (للتالابيات) بالغناء والرقص وبعثرة (الشبابيل) التالابية ،وسمح الزعيـــم لعينيه الشراريتين بالخجل ، ولجسده الشرس بالإرتعاش قليلا مسايرة للموقف المهيب .

في اليوم التالى حصدت الأقاويل البيئية حصادا كثّا .

حصدت كلمتين على وجه سعدية شاشاي ، وجرحاً قطعيا على كتفها الأيسر ،وأخـــاديد دامية بفعل العض على خريطة جسدها بالكامل ، وطلقة بائنة لا رجعة فيها .واعتذرت الأقاويل بشدة وهي ترتجف لكل الذين جحظت أخيلتهم لامتصاص تفاصيل أكثر خبثاً .

وقد همس الإمام (إدريس أحمد) الذي وثّق ذلك الزواج وبعثره لخاصته ، أنه ظل مصابـــا بسلس البول لثلاثة أيام تلت تلك الواقعة ، وتبعت همسته همستان كبيرتان لشاهدى العـرس ...

العمدة (إدريس إدريساي) ، والمتفقه التوحاري (المجذوب الإدريساوي) حيث أُصيبا بنفس الأعراض.

حين استوت (الكريكابية) في عينيه ، أحس الإغاثي بإنهاك شديد ، وبدا له أنها تنتزع أعضاءه جميعا من جسده وتعيد تركيبها ، حتى صار قلبه في موضع الرجلين ، وأنفه يشم من خلف ظهره ، وتحركت إحدى أُذنيه لتستقر على سرته . لم يكن في وجهها أي دم حواري، ولا قفزت من عينيها لهفة المغاثين عندما أوقدها (إدريس سعيداي) ، كانت كأنها امرأة من لا شئ عليها ثياب سوداء ولا شئ آخر ، وبإلحاح من مهمته العسيرة وضع تحت قدميها ما ظنه ردودا على أسئلة لم تقلها .... عدة أرطال من البن البرازيلي ، قليلا من دهن المحلب ، دقيقا وسمنا وملابس ، وفانوسا مرتعشا يكفي لإضاءة ليل المسنين ، أخذت الحاجيات وخرجت من عينيه بنفس هيأتها التي دخلت بها .. امرأة من لاشئ .

بلكز جبّار استبسلت فيه (الكريكابية) بأعوامها الثمانية والستين وقاومته الأجواء المغاثة حتى آخر رمق احترامي ... كتبت الأقاويل البيئية على عيون البلدة وألسنتها وسيقانها المشّاءة ...

– جاسوس ... جاسوس ... جاسوس .

خبأت القبائل من تراثها ما ظنته عرضة للخطر ، فتوارت عكاكيز المشاكل ، واختفت ريالة (التمباك) من معظم الشفاه ، وخفيت الأرحل من صنادل (التموت تخليه) الشديدة العراقة . وعلى مسافة ميلين من البلدة التحم الحصى بالرمال وشكلا نسيجا عدوانيا ، حاولت عشرون بندقية كبيرة السن أن تتصين ، فحشت معداها بالرصاص ، حكّت طائرتا (ميج) جربانتان تابعتان لحرس الحدود جلديهما بشدة ، ازدرد ثلاثون عسكريا مغاثا قهوتهم البرازيلية على عجل واستدعوا تدريبات للياقة كانت قد طُرِدت من وظائفهم منذ عهد واستيقظت لافتة نائمة لتغسل وجهها الذي نطق بكتابة مستغربة ....

- ممنوع الاقتراب والتصوير .

من البيوت القليلة التي لم تمسها الإغاثة في (توجار) ، إما سهواً أو عجرفة أو تعففا متأصلاً في تلك البيوت ، أو لخلل في ساكنيها ، كان بيت العمدة (إدريس إدريساي) الذي أشهرت حيطانه سلاحها الأسمنتي في وجه الكرم الغريب ، فاحت من أحشائه روائح الترف العمودى ، ونزّ صوتان عائليان يختصمان على رغبة العمدة في تلك الليلة . أيضا بيت الإمام (إدريس أحمد) الذي بدا بلباسه الطيني راكعا يصلي في وسط البيوت ، وقد جلس على بابه ممتلئاً واحد من أكثر الأزيار ردًا لتحية العطش بأحسن منها في (توجار) . إلا أن الإمام اعتبر بيته مغاثا حفاظا على وحدة الأجواء ، ورغبة من تدينه الفضولي أحيانا في الغرق في فورة الأحداث ، وانتشال ما ينفع الناس في هذه الأرض .

في أحد تلك البيوت جلس (سرور ود طاهر) وحيدا يخاطب كأسه الرابعة من عرقي (السيسبان) ويقاوم رغبة تافهة في قطع أنفه ، والتخلص من عادة الشم نهائيا حتى لا تنادمه الأجواء المغاثة . عادته في السُكر كانت فجة ، تسئ إليه باستمرار ، وتصل إلى حد حشوه بالخبل والبدائية ، وسلس البول ، ولا يستطيع طردها . وفي ذلك الصباح عندما انشقت النافذة البدينة ، وفارت البلدة ، كانت عادته الفجة قد أوصلته إلى غيبوبة مزرية، وجد نفسه فيها يمد يده إلى كأس من جمر ، وفي اللحظة التي لسعه فيها الكأس ، سحبت (الكريكابية) أظافرها من لحمه . تراجعت غيبوبته ، وابتدأت حواسه تعدوا إلى مواقعها بجنون،كانت الكريكابية في وسط فوضاه ، قائمةً كما يعرفها لكن نظرات مسلحة كانت تتعارك داخل عينيها الثعلبيتين ، عرف أن ثمة حملا خطيرا ومكتملا على وشك التدفق من رحم الأقاويل البيئية فبعد ست سنوات أنفقها في البلدة الغبارية تلوث فيها برطانة (الإيتاب) ، كان لابد أن يعرف . ولثوان قليلة تكاثرت في ذهنه عشرات النطف التي يمكن أن تحبل منها الأقاويل البيئية، ولا يدرى لماذا اختار انفعاله تلك النطفة بالذات ، سحبها وألقى بها في وجه الكريكابية ....

– هل تزوجك أوكير مرة أخرى ؟

ولم ينتبه إلى أنه كان يسأل كدمة غافية وجرحا قطعيا يابسا لكنه موجود ، وعدة تفاصيل سرية دُغدغت مرارا لكنها لم تلن .بغتة تبعثرت الكريكابية , شدته من تعاسة اللحظة وغلصت به في فوران البلدة .

قال يخاطب كأسه ... يا سلمى .

وخُيل إليه أن المرأة الوحيدة التي علّقها على قلبه ذات يوم وسقطت ، قد خرجت من نقاء الكأس كما لو كانت منذ ثلاثين عاما بنفس ضرورياتها وكمالياتها ، وعينيها الخطرتين . يا .. سلمى ....

قرّب وجهه من وجهها ، أخذ يمسح بيده على شعرها الزجاجي ، أحس بها باردة ولئيمة وشديدة الخبث ، دلقها من عقله ويديه وأخذ يغنى .....

ألبيرت الإغانى حرام عليك ألبيرت.

نحن عبيدك إنت .. وإنت صاحب البيت .

توجار بى وجودك ولّعت ديناميت .

ألبيرت الإغانى حرام عليك ألبيرت .

أعجبته شخبطته السكرانة على أغنية (فرج الإدريساوي) ، استرسل فيها حتى أكلت الغناء وأحالته إلى فضلات قرف منها الليل وسد أنفه ، كان الجزار الأمدرمانى القديم قد ساهم في كتابة أشهرٍ مظلمةٍ طويلة من التاريخ الوطني للبلاد ، وذلك عندما اشترى الرئيس منه لحمته منذ سبع سنوات في إحدى جولاته التنكرية .

لا يعرف أحد من الذي كتب تلك النزوات الرئاسية ، من الذي أطعمها السيناريو والحوار ، ومن الذي أخرجها لتتسكع في الأسواق العاصمية مثلها مثل أي نزوة شعبية لأناس شعبيين ، لكن فوضوي (سوق الشمس) وباعة الطماطم والكوسة والجرجير ، وحالفي طلاقات

الضرورة ، والمنادين على تجارتهم بنداءات الصدق والكذب على حد ســـــواء ، (النعنـــاع في الشاي عجب ... في الجبنة قلّة أدب .. علينا جاى .. علينا جاى) ،كانوا قد أدمنوا تلــــك التروات بمرور الوقت ، صاروا يهتمون بكي القمصان والسراويل ، ويتعطـــرون ، ويتعذبـــون عذابا مرّا إذا لم تباغتهم فجأة . وبمرور الوقت أيضا تحولت تلك التروات إلى برامـــج ترفيهيـــة للمتسكعين ، وعشاق الترف الرئاسي والأيتام ، وإلى واجب كثيف العــــبء لرجـــال الأمـــن والطوارئ ، كان عليهم ترميم الحُفر ، وتهدئة أعصاب المجارى ، وتدريس المطبات قواعد احترام السيارات الموكبية ، وإيقاظ اللافتات النائمة وإيقافها على الطرق ، وتجميـــــع الصـــوت مـــن ذكريات الهلع والتوترات ومتاعب الزوجات والعيال .. والصياح به ....

- أبعد .. نزوة رئاسية مفاجئة .

- أفسح الطريق ... نزوة رئاسية مفاجئة .

وفي بعض الأحيان عندما تطيل التروة تسكعها ، كان عليهم تكميم الغنم ، وإعاقة القطـــط والكلاب الضالة ، وتغطية الحمير العاملة في السوق بملاءات بيضاء ، وإظهارها في هيئة مواطنين أذهلهم الخوف ، فستروا وجوههم الخائفة بالجلاليب . وعندما انزاحت تلك التروات ، غطـــت أكشاك الليمون والعرديب والكركدى ، كان عليهم توثيق الصبر إلى وظائفهم المملولة ، وتنقيـــة الغبار من حلل المرطبات ، وتسكير الثلج حتى يبدوا نشوان ، واستبدال المتشردين الذين تغـــص بهم تلك الأماكن ، بمتشردين من الطبقة الراقية ، يشمون البنزين وهم يرتدون (الفول- ســـوت

كل ذلك كان يحدث ، وبصفته أحد فوضوي سوق الشمس ، كان (الأمدرمانى) يعرفـــه ،وكم من مرة سلخ لحيته ، ولوّن شاربه ، وارتدى ساعته (الرومر) الثمينة انتظـــارا لمباغتـــة التروة، وبالرغم من أن مسئولاً رفيع المستوى تدنى له خصيصا في ذلك اليوم ، رسم له عظمتـــين متقاطعتين وجمجمة ، وحبلا معقودا يتدلى منه جسد على واجهة محله ، كناية علـــــى قرصنـــة الزبون وبطشه ، جاء بمتطوع صفعه على خده وسوّره بالجنازير ، وبمجموعـــة مـــن الهتـــافين

الأوفياء ، مزقوا أغشية اللحظة بخناجرهم الوفية ، وبعدد من المراسلين المحليين تحدد وجودهم مسبقا ، وأعطى إشارة لإحدى طائرات الهليكوبتر لتحلق في المكان .. إلا أن الأمدرماني لم يفهم ، باع للرئيس ثلاثة كيلو من اللحم العجالي بسعر عشرة .

رماه الرئيس بنظرة وطنية فقيرة ، أطل من هندامه الشعبي صوت متسول ......

– لماذا تبيع بأزيد من التسعيرة الرسمية ؟

تدنى له المسئول الرفيع أكثر ... قال له بالحرف الواحد ...

– هذا هو الرئيس متنكرا يا أخ .

إلا أن الأمدرماني كان بعيدا ، قال بطرف لسانه ....

– هذه هي التسعيرة الرسمية ... إذا لم يعجبك الأمر اشتكي للرئيس .

اشتكى الرئيس للرئيس بالفعل ، وترتب على تلك الشكوى تعطيل الذبح والسلخ ، وإيقاف خمسة آلاف جزار كانوا يمثلون قنوات البروتين الأكثر كفاءة في الوطن كله ، وإدراجهم مشاة في الجيش وتسليحهم حربيا على نفقتهم الخاصة ، وتم تجويع محكمة خشنة قُدم لها الأمدرماني على طبق مبرح فالتهمته دون إبطاء .

أشهر طويلة بلا قلي ولا شواء ، ولا موائد سكرانة تتناحر فيها أشلاء الخراف ، برطم الفحم غضبا ، ضمرت سلالات الشطة والليمون ، وجلس الكرم واضعا ساقا على ساق . قفزت عائلات الفول والطعمية ، واللحوم المنهزمة للأسماك والفراريج ، لتتولى قيادة التذوق ، تزوج الكثيرون بلا بطاقات للدعوة ، وولد الكثيرون بأسماء بكت على دفاتر التوثيق من شدة الغبن ، كتب العائدون من بيت الله الحرام على أبوابهم .. حجا مبرورا .. وذنبا مغفورا .. وسعيا مشكورا .. ولحما ممنوعا . وطافت على الرعاة أيام سفيهة ، كانوا يزجرون الكلأ ، ويبرون الصقور النهمة ، وطيور (الرخم) ، بوجبات مكثفة ومدهشة . فترت رغبة الليل ، طال نوم الضحى، نشطت عقول (الديكورين) وتحولت السكاكين المشلولة على أيديهم إلى

أدوات مبتكرة للزينة تزاحم عليها الطلب ، حتى دخلت في دماء المرتّبات والمشاحنات الزوجية ، وقسائم الطلاق ، وهاجر مرض (الاشتهاء اللحمى) الذي كان مشتتا في عدد من الدول المجاورة ليتماسك في البلاد بكل عمومياته وخصوصياته ، وأطفاله المخبثين .

– سيادة الرئيس ... وجّه غضبك إلى السُكّر ودعهم يتذوقون طعم الشاى ... وجّهه إلى (الويكة) و (القنقليز) ، إلى الترمس والتسالي ، إلى ثمار (القُضّيم)التي تربك المصارين ، وتفسد وظيفة الدم ... إلى اللبان اللادن والضكر ، إلى بخور (التيمان) وما شابه ذلك ...

أشار المستشارون بضراوة ... ولا فائدة .

– سيادة الرئيس ... بيوتنا لا زالت غير مكتملة ، عيالنا لم يروا (روما) و (باريس) ، نساؤنا مللن نقوش الذهب القديمة ويطمحن إلى (أساور البرش) ، وعقود (كارتييه) و (كرسى جابر) ...

اقترب المقربون أكثر ... ولا فائدة .

– لأنك منا ... لأنك فينا .. صفّقنا لك طويلا . كتبنا اسمك الجليل على قلوبنا ، واستعنا بسماحتك على رزقنا وحياتنا .. يا رائد المصارحة .. يا معلّم الوطنية .. يا حبيب الشعب ......

ناشدت المؤتمرات الشعبية ... ولا فائدة .

طلّيت زى مطر رشانا جاب الرحمة .

وفي عهدك بتاتاً ما عرفنا الأزمة .

ومن شدة معايشنا البِقت منظمة .

ملينا الترف والنوم وأكل اللحمة .

إنت الهادى والقائد تقود الأمة .

إنت الزغردت ليك في المحافل يُمّه .

غنّى المغنون ، وطنبر الطنبارة ، وجنّت عيون الشعر من شدة البكاء .. ولا فائدة .

- حبيبي ونور عيني .. يا غاية طموحى وطموح الملايين .

تعطرت الزوجة وتقلبت وبكت على ثيابه البيتية ... ولا فائدة.

- بما أنه ، ونتيجةً لذلك .. وكيف ....

تفلسفت الأبحاث العلمية ، ومختبرات الفحوص الطبية ، هدرت أغنيات البنـــات بوصـــف الشحم واللحم ، رقصت العرايس على أنغام فوضوية ، ابتل تراث الفـــرح وتـــراث الحـــزن ، تحشرت الدول الشقيقة والصديقة ، والمقامات البابوية ، ومدّت الدول المانحـــة ألســـنة مغلفـــة بالبصاق، عند ذلك نبتت في أذهان المستشارين فكرة صلعاء ما لبثت أن اخضـــرت بالشـــعر ، جاءوا بجدته من الريف ، دهنوا (شلوخها) المسنّة بدموع حمراء ، وألبسوها ثيابا فقيرة حـــتى بدت أشبه بجدة لخفير نظامي ، ثم حشروها في جولة بالصوت والصورة على كل محلات الجزارة المكتّفة حيث وضعت في كل واحد منها لهاثا مرا ودمعة حمراء ,

بكى الوطن كله من حبكة البث المباشر ، أقسم الأحفاد في كل بيت أن يختاطوا إلى آخـــر العمر، وأقسمت الحفيدات أن يتقمن لعطائها المشوه ما بقيت في مبايضـــهن روح ، وبقيـــت الرئاسة صماء عمياء حتى عن اللوم وإشباع السجون .وأخيرا كان لابد من إخباره .. هكـــذا قضى الأمر .

هيأوا له إحدى سهراته المفضّلة ، وضعوا أطباق الأمر والنهى في طرف ، وأطباق التســـامح والعفو العام في طرف آخر، وزينوا مائدته العامرة بعدة قرارات للبطش كانت تتحرق شـوقا إلى أصابعه . وعندما بلغت نشوته حد الشبع ، وتجشأت بخيّلاء،جاءوا له بكتاب للتاريخ ، وضعـــه نخبة من الأساتذة ، وأقرته الجهات التربوية والتعليمية تمهيدا لطرحه على المدارس مباشرة بعـــد

نهاية عهده . كان كتابا شرسا ، تتقافز من أحشائه روائح الموت ، وترتع داخله الذئاب الاستعمارية جنبا إلى جنب مع القطيع الوطني ، يتقاتل الجوع و الشبع ، وتبكي أحلام الخلود المنهارة بدموعها ودمائها وأجسادها المدفونة .وتحت عنوان .. الرئيس السابق للبلاد قرعوا له ...

(كان غريب الشكل والأطوار ، له أذنان حساستان وعينان براقتان ، وفم أكول ، كان يتقن لفّ العمامة وتسبيح الدم ، وغلي السعادة على ناره المدهشة حتى تتبخر ، كان يعشق (البامية المفروكة) لدرجة العبط ، ويقال أنه كان يفركها بنفسه ، ويخصص عمالا سريين لصناعة المفارك وطلائها بالذهب ، لم يره أحد يضحك أبدا حتى عندما كانت تضحك الدولة كلها ، وتحبل صناديق الاقتراع وتلد اسمه فقط . اتسم عهده بالضياع ، كثرت الأحاجي والألغاز ، نشطت جراثيم الملاريا والتيفويد والدرن ، واحتلت عربات (الكارو) مكانة بارزة في أساطيل النقل العام ، وشاخت القضايا الملحّة على طاولته حتى أصيبت بالخرف وفي نهاية عهده فرت الصحة والعافية ، وظهر مرض (الاشتهاء اللحمي) ليفتك بآلاف المواطنين ويمهد للغضبة الكبرى التي أطاحت به في يوم ...)

ذعر الرئيس ، ابتلت رئاسته بعرق ساخن ، وانفجر دمّل كثيف كان راكدا تحت أحد إبطيه، كان اليوم التالي هو يوم الغضبة الكبرى ، صاح وبكى واستعطف , وأعاد الذبح والسلخ والجزارين المشاة من الحرب. وفي قمة إنهاكه طلب طبقا من (البامية المفروكة) وأغنية في برنامج (ما يطلبه المستمعون) وخطابا تاريخيا يُكتب في التو واللحظة . وعندما وُضع أمامه اسم (سرور ود طاهر) الأمدرماني للنظر في أمره ، أصدر قرارا بتعيينه محافظا (لتوجار) بالرغم من عدم وجود محافظة بذلك الاسم .

شمته القبائل من البخة الأولى لرائحته وهو يدخل (توجار) وعندما أصبح على مرمى حجر من إرثها وسفاهاتها لخّصته الكريكابية (سعدية شاشاي) في واحدة من أعمق أقاويلها البيئية قالت ... إنه سخلة يتيمة ترضع من أي ثدي تجده ، وجرادة (هبيلة) لا تفرق بين المبيد

الحشري وعصير الليمون ، وقد كان ... هيأ (الهيلباب) له زفة مأساوية حشـدت بالصبية والحمير ، قادته إلى بيت توجاري عكر ، وقام (التالاب) بنحر قرار تعيينه محافظا بسكاكين العيون الحمراء ، عينوه جزارا توجاريا بنفس رتبته القديمة ، وثقافته المستمدة من (الكمونية) و(أم فتفت) وبيت الكلاوى ، حتى ثيابه البيضاء طعموها بالدم ، وعندما أخبرهم عن صبي أعرج كان يسرق اللحمة منه كل يوم ، كسروا رِجلا لأحد صبيانهم ، وعينوه سارقا للحم من عنده .

وقد لعبت الكريكابية شوطا أخّاذا في غسله وكيّه ، وإعادة ترتيبه التفتت إلى يديه المعطلتين ، أدخلتهما عناية مكثّفة في بيتها ، وظلت تدلكهما أياما بالشحم وزيت (الكافور) حتى استردتا السمع والبصر والشباب . وفيما بعد حاولت فروع صغيرة من نمر الأقاويل البيئية أن ترطن ، أن تصنع من الأمدرماني عاشقا يصل الليل بالنهار ، ويصلي الفجر في جماعة من الدموع والتنهدات ، ومن الكريكابية حبيبة مكسورة الجناح ، لكنها أخفقت تماما .

من بين بقايا حبيبة مراقة على الأرض ، ورائحة خاصة لليل خاص مغاث وسكران ، تحدثت في ذهن الأمدرماني فكرةٌ كانت نابتة منذ أول يوم انشقت فيه النافذة البدينة ... لماذا لا يذهب إلى الإغاثى ويشتمه ؟

رفعت الفكرة من صوتها ، وبدأ رذاذها البصاقى يتناثر ، وحدة انفعالاتها تتجمهر على الذهن.. عند ذلك توصل الأمدرماني إلى الأم صيغة يمكن أن يتمرد بها لئيم على كريم....

(أيها الجردل الممتلئ قمامة .. لملم قمامتك واخرج بها من توجار)

لاكها عدة مرات حتى تعود على طعمها ، ثم وضعها على طرف لسانه جاهزة للبصق وترنح خارجاً .

فجأة سطع برق وانطفأ ، عدت هبة ترابية في البلدة كأنها غضبةٌ تطارد مغضوبا عليه ، ومن بين شروخ الظلام المغبّر التي أحدثتها مجهودات الفوانيس ، شاهد الأمدرماني .. الجزار .. المحافظ

، خيوطه المطلوبة لترتيق السراويل ، ومرهم (الزايلوبروكت) الذي يأكله ناصوره الشـــرجي باستمرار ، شاهد عباءات بيضاء وعمائم منهّبة ، وشاهد (ألبيرت بشاى) الإغـــانى متبوعـــا بكل ما تحتويه البلدة من طيش واتزان ، يدنو من حوائط بيته ، قبّلها قليلا ثم كتب عليها أشـياء غريبة ومضى .. تراجع جردله المشبّع بالقمامة من طرف اللسان ، تمتم كأي (توجاري) مغاث """"

- ألبيرت الإغانى سلام عليك ألبيرت .

صباح السبت كان متوتّرا مشحونا ، تنتفض وقائعه وتعرق بشدة، وتصّاعد من ساعاته الأولى شحنات النرفزة والتعصب ونفاد الصبر ، فقد شمّت عدة قرى ثمت (لتوحار) إما بصلة القرابة أو النسب أو المعرفة السطحية رائحة الشبع نقية وسخية تتحدى كسل المناخير ، وقد أدّت الأقاويل البيئية دورها المتوقّع في رص الصحون وتعبئة الموائد و شحن القرى وتفريغها ، وكساء الرائحة بثياب شتى ، فالتقطها التجار بضائع مهرّبة تتسول الشراء وترضى بالملاليم ، والمزارعون ... تقاوياً محسنة تنموا حتى لو غُرست داخل النار، وقطاع الطرق ولصوص المحاصيل سلمتهم الرائحة كنزا بلا عرق أو لهاث أو مغامرات ليلية . أما النساء فقد خلعت الرائحة أقراطهن النحاسية ، كستهن بعيارات الذهب والفضة ، وكتبتهن في وقائع السبت المتوتر المشحون .

وفي قرية (عدارات) حيث (المسكيت) سيئ التغذية ، الرمال خرافية والبيوت عطشى ، وليالى السمر تُفجع بشهيق الذئاب،كان يتزامل ستون من قدامى المحاربين ، تخلصت منهم الحرب منذ عهد ، وأكرمهم الجيش بأن رقى ظلالهم إلى رتب الظلال ، وحافظ على هياكلهم عظمية ، وسراويلهم قطنية ، ولحاهم مثمرة لكنها بيضاء ، وصرف لكل واحد منهم أطواراً غريبة ، وأوسمة قصديرية ، ولسانا عصبيا يسهل بالبطولات ، كان بعضهم يتحاشى شراب (الكحة) فرارا من صبغة الدم ، بعضهم يخبئ رقائق الكسرة تحسبا لحصار مفاجئ ، وبعضهم يدخن تحت أغطية كثيفة مخافة أن يرشد الضوء إلى مكانه كما كان يحدث في الحرب .

هؤلاء نادتهم الرائحة بصفاتهم شخصياً ...

- يا متضررى الحرب جاءت التعويضات .

لبوا النداء بابتسامات خشنة ، وعاهات قديمة ومستحدثة ، شحنوا نساءهم بالزغاريد ، وعيالهم بأغنيات المجد والثورة ، وحمّلوهم لافتات قماشية كانت تتصبب عرقا وهي تهتف ...

- أيدناك بايعناك ..... أيدناك بايعناك .

ثم فتقوا طريقا وعرا قادهم متذمرا إلى توجار .

وفي الساحة التعسة في وسط البلدة حيث جَلدت قبيلة (العمش) منذ أربعين عاما ، وانتحرت منذ قرن من الزمان قبيلة (الجرابيع) ،احتجاجا على إسكانها تعسفيا دون مراعاة لعشقها الرحيلي ، لفظت آخر ذرة من التماسك أنفاسها ، زايد التجار على بضائع لم يعرفوها ، والهبل المزارعون بتقاوى الربح والثروة ، وقطع قطاع الطرق على أنفسهم إمداد الهواء . مدت النساء أعناقهن إلى عقود الذهب ، وآذانهن إلى أقراطه اللماعة ، وبطش بالعيال جوع هستيري دفعهم إلى التطريز في جيوب الآباء وأولياء الأمور بحثا عن بقايا من (ترمس) أو (كبكبيق) قد تكون عالقة بالجيوب .

وعندما وصل الجيش (العداراتى) واحتل موقعه الذي خططته الأقاويل البيئية تماما ، كانت عيون السبت قد دمعت وجفت ، وأنفاسه قد تلاحقت واسترخت ،وحاول (الإغاثى) الذي نهشته البرارى لأول مرة منذ تصدى لأسنانها أن يبدوا حكيما ، تبسم في وجوه التجار ، وعيون المزارعين ، وقلوب النساء والأطفال ، أغاثهم بأوامر ملتهبة إلى عرباته المخبولة أن تلبس وتأتى من جديد ، وحاول أن يحل مشكلة الجيش (العداراتى) بأن دوّن ستمائة عاهة طاردوه بها واعدا بإعادة تأهيلها .لكنه لم يضع في تكهناته أبدا أن (عبد الصمد عبد الصمد) قائد الجيش العداراتى ومنسّق هتافاته وزغاريده ، والأب الروحي لكثير من العُقد والهمجيات ، كان ثعلبا حتى بعد أن قضمت الحرب جزءا من بصره ، وغذّته تسعة أشهر حصارية فى (داو الشُلُك) إحدى منابع الحرب ومصباها هستيريا المفرقعات ، ودوالي الساقين ، وبجرب أفريقى لئيم أبى أن يفارق جسده أبدا ، وفي خمود ما بعد الحرب كثر إسهاله واستفراغه ، وسؤاله عن موتى كان يقتسم معهم السكَرات .

حك جلده بقعر سلاحه القديم ، نظم طوابيره الملتهبة بإشارة خلاقة ، أخرج من جيبه خرقة ممزقة ، مسح بها على أوسمته القصديرية .. ثم انتفش أمام الغريب ....

-كيف تدفعون التعويضات ؟

- كم تدفعون للعضو المبتور ؟

- كيف تقيّمون الآثار النفسية والاجتماعية للحرب ؟ ... نحن لسنا أطفالا ولا بلهاء .

وردد الجيش العداراتى خلفه ....

- لسنا أطفالا ولا بلهاء .

حتى عيالهم أرهقوا حناجرهم النامية ...

- لسنا أطفالا ولا بلهاء .

اشتم الإغاثي من خلفهم إصرارا تعسا سفيها ،كانوا قساة حتى وهم يتهامسون ، ويتثاءبون ويطولون ويقصرون ، ويعطفون على تعب العيال ، وفي اللحظة التي يظنهم فيها قد تمزقوا بأسا ، كانوا يترتقون وترتق مطالبهم . وطوال ساعتين أنفقهما الإغاثي لاهثا بين عبدالصمد وجيشه ، كانت البلدة الغبارية التي أُغيثت حديثا تصحو وتتجمع ، حتى ذابت الساحة التعسة تحت ركل الخطى وتبول العيال و(تكلبة) النساء ، وأخيرا نجح بمعاونة السلطات الواهية للعمدة (إدريس إدريساي) والسلطات الشرارية لعصابات (التالاب) في دحرهم وهم يحملون قروشا قليلة امتصوها من جيبه شخصيا ، كانت جواربه مخرمة حين تلاشت وقائع السبت ، أنفه الكبير مزكوما ، وفي حلقه سعال يطفو ويغطس .

بصلف كان مستقبليا ، ولكن توقف نموّه منذ عهد بعيد قال (عبـــد الرحمــن حليمـــو) صاحب المطعم المفخخ في (توجار) مادّا ترحيبه إلى الإغاثي في أول يوم انشقت فيـــه النـــافذة البذينة ...

- أهلاً بك في بلدتنا العامرة .

في إحدى السنوات البعيدة حين كبر الغضب ، وعضت الاضطرابات على الوطن كلـــه ، وأصبح التظاهر أحد التقاليد المراعاة شعبيا ، اخترعت السُلطة (يانصيب التوت) كآخر إجـراء ترويضي لغسل معارضيها الذين تعارضوا في الحلق ، وأصبحوا يلدون الهتاف علـــى إسـفلت الطرق وخواء البيوت ، يجرحون الهيبة ويرجمون المناخ السياسي بعنف غريب .

وفي سنوات قليلة أفلح (يانصيب التوت) في ما أخفقت فيه وجبات السجون الضحلـــة ، وتجليات الأمن الوطني وتحليقاته المميتة بالسكتة الدماغية ، أصبح المدنيون سكارى بــلا عـــرق حقيقي ، والعسكريون يهشون وظائفهم الصارمة ، ويبركون فيه ناسفين لقروشهم وصلفـــهم وقدراتهم الإنقلابية ، حتى ربات البيوت خضن فيه ، وأضفنه بضراوة إلى لعبة البيـــت ، تمامـــا كالطبخ والكنس والشجار وتوابل السعادة . كانت قسائمه تتبسم في كل ركـــن ، وجوائـــزه تركض في ساحة الحلم جيئة وذهاباً ، عربات ... وبيوت ... وشاحنات ... وأسفار مذهّبة إلى أجمل بقاع الدنيا . وفي موعد السحب الشهرى الكبير كان كل شئ ينشط ... تنشط الغـــدد اللعابية وينساب إفرازها الغزير ، تنشط حوادث الطرق وتؤدى إلى الموت ، تنشــط الأنديـــة والساحات وملاعب الكرة ، وإدارات الضرائب ، وشئون الأفراد ، وتنشط الديون المتثائبة أيضا وهى ترجو سدادها .

وتدريجيا انتبهت السلطة إلى مشروعها الخطير ، سمّته الإنجاز الحضاري الكبـــير ، ألحقتـــه بمشاريع البنية التنموية ، وأجبرت عددا من طلبة العلم على مناقشته في رســـائلهم الجامعيـــة ، فهطلت رسائل الماجستير والدكتوراة تحت عناوين شديدة التعقيد ,,,

- يانصيب التوت وأثره في أقلمة الوطن وتنميته المغنّية .

(دراسة تقيمية) .

- الآثر السايكوباتى ليانصيب التوت .

(تحليل اجتماعى- أخلاقى مذدوج) .

- يانصيب النخبة الشعبية – ما له وما عليه .

(إضاءة) .

- الموروث التراثي الملحمي في يانصيب التوت .

(بانوراما اجتماعية مفصّلة) .

كان (عبد الرحمن حليمو) أحد الذين اشتهاهم الحظ وأبرّهم يوما أحرز الجـــائزة الأولى ليانصيب التوت منفردا ، وفي ساعات قليلة آلت للجرسون العاصمي الذاهل ، لعبة الدنيا كاملة بلا نقص ، حاول أن يضحك فبكى ، أن يقوم فقعد ، وأن يستقيم فانكسر وفي ذلك المســـاء ألقى بأربع وثلاثين عاما فقيرة .. غنية يملكها في النيل ، ألفي بها لأن فلسفة الفقراء أغرته بـــأن لامعنى لوظيفة بلا ديون ، ولا قدمين بلا مشى ، ولا مصارين بلا جوع أو هيـــاج. وعندمـــا كادت أعوامه تتلاشى ، ضحكت فلسفة الفقراء من عبطه، وداست على وعيه المرعوب تمـــلنون قدم للإنهيار العصبى كلها كاسحة ومدمرة ... صاح ..

- يابنت جبريل ... يا زنوبة ... يابنت جبريل .

انهارت سكرة مكلفة لثلاثة مواطنين كانوا يشيّدونها في النيل، أخرجوه بربع وعى ، وحملوه إلى شتلة صغيرة ، فرّغوه وسقوها من مائه الأحشائى ، وعندما فتح عينيه وحرك لسانه ووقـــف وكاد يمشى ، أمسكوه من بلله ، أضافوه إلى ليلهم حتى اكتمل ، ثم حملوه إلى المستشفي كـــأى غريق حديث الغرق .

وفي المستشفى تذوق (حليمو) متعة التمريض الوسيم ، وحنان الأجهزة المعقدة ، وبياض الملاءات البيضاء ، تكشّفت له الخفايا ، وعورات الوزراء والوكلاء ونواب مجلس الشعب وهم يأكلون الترمس والتسالي (والقضيم) ويتجشأون حول سريره ، تعبت (جرسونيته) كثيرا وهي تعدو بين أغلفة الورود والهدايا الطبقية ، وتحك رسائل الصبية (الطرزانيين) وخواطر المراهقات، والإلحاح المفزع لراغبات الزواج ، طُبّقت فيه قاعدة البقاء للأصلح حرفيا ، حتى ذقنه كانت تجد من يحكها ، ونكاته المجرّحة بفعل الغرق وتورم اللسان ، كانت تجد من يرتّقها ، ويستلقي على قفاه من شدة اللسع .

وبعد أن اكتملت له إزاحة الماضي كليّة ، وترسيخ دعائم الحاضر، أطل صلف المستقبل جليا في طبعه ، سمّى نفسه (اللورد) بلا ثقافة استعمارية ، ولا إقطاعيات ، ولا عروق زرقاء ، وعيّن منقذيه الثلاثة توابع وتوابل ، حتى صاروا يختالون بين النوم والتثاؤب .

وفي تلك الأيام بدت أمه (زنوبة جبريل) أجمل داية متقاعدة في الوطن كلّه ، خفّضت أعوامها الكثيرة ، وتأنقت في ثياب (الكروان) و (الجورسيه) ، و (عاتبني بالنظرة) ، حتى تحول سن اليأس عندها إلى سن معاصر يحرك الشهوة ، ويكلم الثروات الخالدة لعشاق الزواج والصحبة ، ودهاليز المحاكم الشرعية .

- كانت هجرته من أجل امرأة .

رطنت الأقاويل البيئية في (توجار) منذ اثني عشر عاما .

- كانت هجرته من أجل (عواطف المجذوب الإدريساوي).

رطنت الأقاويل البيئية في (توجار) منذ أحد عشر عاما ، وأحد عشر شهرا ، وتسعة وعشرين يوما .

وبالفعل .. لم ينس رابح (التوت) المنفرد الذي خنقته السُلْطة بقلادة النيل ، وشرحت صدره بوسام النخيل من الطبقة الأولى .. ذلك الوجه التوجاري أبدا ، ومن بين عشرين وجها

شاركت في حملة خيرية لإعانة أطفال توجار ، وسال فيها (حليمو) سيلانا عنيفا ، انفــردت (عواطف المجذوب) بأمنياته كلها ، وسرعان ما خططتها بضحكة خيرية ، ولوّنت تخطيطــها الضاحك بنعومة لا دخل لجغرافيا البلدة الغبارية فيها من قريب أو بعيد .

وجد (اللورد) لونه يرتعش ، أعصابه تنغرس في سلك الاختبار اللولبي خمسين مرة وتخفــق ، ووجد قلبه يشترى لوحات من الكرتون عليها وجوه عليلة ، وســلالا مــن الصــوف و (الحنقوق) بلا أي مجد حِرفي ، وعشرات القوارير من مربى البطيخ والقرع،وملّيّنات النعنــاع ، طبختها الحاجة المتشنجة أكثر مما ابتكرها الفن . .

وقف السوق الخيري لجمعية نساء (توجار) مدهوشا وهو يرى تفاصيله تتــآكل لا مــن شراهة الخيِّرين ، ولكن من معاول العشق التي انهبلت وجنّت ودعكت على عيون الخير بشراسة لم تتعودها تلك العيون أبدا ، اكتأب عشرات الخيرين ، واكتأبت زكاتهم التي قاســوها بربــع العُشر ونصفه ، أزعجوا فيها الفقهاء ، ودفأوا بها جيوبهم من أجل توجار وأطفالها .

قالت له (التوجاربة) وهى تبيعه كرسيا من خشب (المسكيت) صاغه سجين توجــاري مؤبد أبت يداه الحبيستان إلا أن تشاركا في الدعم ....

- دمت ذخرا للخير يا سيدي .

- قال قلبه بلا تردد ...

- بل عبدك يا أميرتي .

كانت (عواطف المجذوب الإدريساوي) تنساب في الدنيا بمؤهل تعليمي متوسط ، حصلت عليه أيام كان تعليم البنات الريفيات خجولا ويتيما قلّما تحتضنه امرأة ، كان منــاصرو تعليــم المرأة في قمة اليأس ، يطوفون بالريف حاملين الحلوى والدفاتر وأقلام الرصــاص ، تزدريــهم القبائل ، وتُقدم لهم القهوة بلا سُكّر ، وعندما قالت (عواطـــف المجــذوب) أ...ب ... ت ...ث . ضحك والدها المتفقه التوجاري (المجذوب الإدريساوي) ... قال ...

- على بركة الله .

أهّلها ذلك المؤهل للتدريس في المدرسة الأولية ، وأمدها بقراءات مبكرة التـــهمت فيـــها حماقات (بني عُذرة) وسفاهات (عمر إبن أبي ربيعة) في الحج والأشهر الحرام ، وربما نـلمت ذات يوم وهى تسند مشاعرها على قصة تجارية مؤلمة ، إلا أنها لم تُلسع أبدا ذلك اللسع الحـى ، وحتى عندما كانت حمى العشق تكتسي بعض أبناء القبائل، وحرّاس الحدود اليابسين ، والعـم (ضرار الإدريساوي) معتوه البلدة الموسمي ، وتئن تاءات التأنيث تحت ريالاتهم ونظراتهم السمينة ، كانت تخترق أعراضهم ومضاعفاتهم ، دون لسع ، تسندها عيناها البخيلتـــان ، وابتســـامتها الغائبة ، وسلاحها الأقوى ... صوتها التدريسي الرزين .

اهتزت من رموشها المسننة حتى أظافرها العارية ، وجاهدت في الاستدعاء حتى لبّى صوتهـــا التدريسى متوترا وغاضبا ...

- عفوا ؟

. ابتسم (اللورد) ابتسامة عطشانة ألقى بها في النبع الحار ، ثم أخرج من جيبه قارورة مـــن عطر (النسيم) ، وقلما للحواجب ، ونسخة من كتاب (رسائل الحب العصرية) وباروكـــة للشعر .. وضع حاجياته على غضب التوجارية وانتظر .

قرصتها أنوثتها المهمّشة عن قصد بشدة ، وتوسّل إليها عمرها الثلاثيني أن تترفق ، ولهثـــت من أعماق قلبها المدغدغ أنفاس حزينة . قالت...

- حسنا ... ماذا تريد ؟

كلّمها اللورد في أذنها وخرج ، وفي تلك الليلة صلّت عشر استخارات حالمـــة ، ونـــامت مكتّفة بعفاريت الضم واللثم والمداعبة،

وقبل أن تشرق الشمس تماما شمت أحلامها تعاسة اللورد وهى تدنو مخترقة الأبواب المغلقة لأعذب سوق خيري تساهم في ترتيقه منذ نزرت نفسها لأطفال توجار .

وفوجئ اللورد وهو يستقبل التوجارية ، أنه يستقبل عطره النسيميّ حياً ، ويلحس حواجب مكسّرة بقلمه الحواجبي ، وشعرا مستعارا من تنسيق ثروته ، وعندما لحس الرسالة التي أسرعت إليه ، وجد نسخة معطرة من أكثر الصفحات دسامة وجنونا في (رسائل الحب العصرية) . ذبحت تعاسته نفسها بنفسها ، وتعملقت من أشلاء دمها المراق طفلة رائعة هى الثانية في لعبة الدنيا التي اختُص بها (حليمو) ، شدّها من الوداد المتبادَل ، وعلى مدى يومين أعقبت انهيار السوق الخيري على يديه ، ورحيل المشاركات وهن يحملن رذاذا من ثروة التوت ، ووقودا فذّا للأقاويل البيئية ، وترخيصا حكوميا لافتتاح منافذ لليانصيب في البلدة الغبارية ، كانت (التوجارية) أجمل مكحلة تكحلت بها مشاعر اللورد ، وكان اللورد أوسم حلم يعلّم التوجارية كيف تحيا، حشرها في أوساطه الاجتماعية ، أبكاها في بقعة انتحاره ، وتفريغه ، وتصببه بالعرق، وأسرف بها في أملاكه (التوتية) وصِلاته الأسرية ، حتى صادقتها الأسعار والبضائع ، ونادتها أمه.. يا (عطوفة) ، وعندما وضعت تفاصيلها أخيرا في خارطة السفر ، أقسم لها وهو متشنج ، انه قادم إلى توجار .. وإلى الأبد .

(تزوجها زواجا خالدا أنهى علاقته بالعاصمة ، وأنشأ علاقته بتوجار، كزوج ، ووالد ، ومالك لأفخم مطعم في البلدة الغبارية)

رطنت الأقاويل البيئية قبل أحد عشر عاما .

– أهل بك في توجار ...

كرر (حليمو) تنفسه ، وخطا بعينيه إلى وجه الإغاثي .

وعلى الفور شم الإغاثي نكهته ، احتلبها من قلب ملابس الريف ، وهمس الأصابع المتشققة ، والنظرات الوغدة التي أخفق غبار الإثنى عشر عاما في أكلها .

سأل بلا تردد ....

- من أي حي في العاصمة أنت ؟

أعاد (حليمو) نظراته إلى عينيه ، ثبّت (تكته) المصنوعة من (التيـــل)علـى سـرواله (الدمّوُرى) ، ومشطه الخشبي المميز على شعره المنكوش بنكشة (توجارية) ،نـــادى أحـد المغاثين بإقليمية عنينة ، وغمز بعينه لإحدى المُغاثات بصعلكة مغمورة لم تخرج من إرث القبـائل أبدا ، بصق نمرا من ريالة (التمباك) على الأرض ، هرول إلى فضاء قريب قضى حاجته وعاد ، وعندما رحّب بالإغاثي للمرة الثالثة ، كان إدريساويا ، وكريكابيـــا، وتالابيــا ، وأعمشـــا ، وهيلبابيا، وشنكتيا ، وتكرونيا ، وكان يمكن أن يكون جربوعا لولا أن انتحرت تلك القبيلــــة منذ عهد بعيد .

ابتسم الغريب ابتسامته التي أصبحت فيما بعد فخا ، اتجه ألى عرباته وعاد مثقـــلا بخريطــة عملاقة ، نثرها أمام (حليمو) فبدت لعينيه العاصمة بغموضها السفيه ، ومقاييســـها المختلــة وقوامها المترهل ، حتى حي (السمرقند) المتسخ علانية كان يثرثر بداخلها ، وروائح الخـوذات ، والدهشات ، والانقلابات ، كانت تنبعث ، وضع إصبعه على بقعة خاوية في الخريطـــة ... قال...

- إنهم يبيعون أراضى سكنية في هذا المكان .

عرف (حليمو) أنه هُزم .

كان قد شرب (التوجارية) حتى لم يبق منها سوى دوخان الوحم،وصراخـــات الطلــق والولادة ، وعصبية القولون والمعدة ، وقميص من (الكستور) لا يفارق لحمها أبدا ولولا أنيــه أقسم متشنجا منذ اثني عشر عاما ، إذن لسأل الإغاثي ... بكم يبيعون المتر المربع ؟

لكن رابح (التوت) القديم الآن لوردا غباريا وعرا ، أطفاله تزينهم عنــاقيد المخـــاط ، و (قيافة) القرى ، وحلاقة الشعر (الكيرى) يشتمون الجيرة والشوارع ، ويلحسون الغربـــاء ،

ويقضمون أظافرهم حتى تسهل الدم . يمشي في البلدة فينادونه .. يا عم .. ويا أسطى .. و(أبو خُرْتاية) ، ويتولى قيادة مطعمه المفخخ ، فيسرقه الوقت والزبائن . لياليه المنهَكــــة ، كلياليــه النشيطة ، وسراويله الأكثر أناقة كانت مجرد سراويل .في إحدى السنوات جـــاءت (زنوبــة جبريل) أمه التي كانت أمه وأفلتها ، كانت أرملة للمرة الثالثة وقد نضب بصرها ، تحسســـت ملامحه وملامح عياله ، وسألت عن حناء زوجته و (دخاخا) وأصرت على كنـــس الغـــرف وتلميع الصحون و صنع فطائر (اللقيمات) بلا بصر ثم ذهبت .

مسح مكابداته بخبطة دافئة على كتف الإغاثي ....

- تعال معي .

شقّا لهيكليهما طريقا وعرا كتّفته الرطانات ، ودلق عليه فوران البلـــدة مئـــات الخطـــى والالتهابات ، كانت العربات المخبولة لا زالت تطبخ رامية بوجباتها على البلدة الغبارية وكـــان الإغاثي قد شرب من حساء الشعر والزغاريد حتى تجشأ ، وبدت عيناه برّاقتان وهما ترفســـان الجفاف ، وتختطفان من هنا وهناك . لم يقل (حليمو) شيئا لكن تفاهة الحزن كـــانت تدفّـــق أقواله، وفي اللحظة التي استلقت فيها فكرة أن الإغاثي شخصا آخر على ظـــهرها في ذهنـــه ، استلقت ذات الفكرة على بطنها في ذهن الإغاثي ... حليمو شخص آخر .... تعذبت الفكـــرة في رقدتها بين الكيانين ثم فرّت .

بغتة أحاطت بهما قافلة من الصبية محمّلة بالعجوة ، وحلوى(اللكوم)، أناخت بصبيتـــها قليلا على وجه الإغاثي ثم مضت ، تبعتها قافلة نسائية ألقت بوجبة زغاريدية حارّة ومشـــبعة ، وحين التفت (حليمو) إلى الإغاثي وهما يخطوان إلى بيته التوجاري العكر ، قال الإغاثي ....

- إنهم يبيعون المتر المربع بعشرة جنيهات فقط .

موسم النحول الزراعي .. موسم الشفقة والديون ، وتسكع الأقاويل البيئية بعضلات مفتولة، وموسم العاهة عند (ضرار الإدريساوي) الذي لُقِّب بالعم إما عن صلة رحمية ، أو اتقاءاً لفورانه الموسمي الذي أرهق البلدة طيلة أربعين عاما أعقبت (مذبحة العشمانات) نتيجة لارتجاج مخّي سخيف مُنّي به شاعر من بطون (العُمُش) تلك القبيلة التوجاريةالتي اشتُهرت بيكائها على فقر النسب ، وتورط أسلافها في حروب عشائرية ذاب فيها الفرسان ، ووضعت الحرب أوزارها على (عمشاوات) فارهات .. عطِشات .. كن يرتوين حتى من السفلة والرعاديد ، ولصوص المحاصيل ، وقطاع الطرق .

كان (الإدريساوي) عاملا خشنا وعرقان ، يزرع ويسقي ويبيع ويشترى ، ويمازح الصبية، ويصلي الأوقات حاضرة ، حتى إذا ماتت الثروة ، كُفِّنت ودُفِنت في قبر حتمي في باطن المعيشة اليومية ، بصق عم (الأدارسة) وخال (الهيلباب) على وقاره ووقار العمومة وصلة الرحم ، والجيرة وكل شئ ، والتحى برغبة شرّانية اختص بها النساء وحدهن .

كانت نظراته تشيطن ، ده يتفّه الأكل والشرب والتحدث ، ويحتفي بالريالة ، وعندما ينطق نصفه الأسفل بذلك الورم غير الودود ، كانت البلدة تعرف أن موسم الفجيعة قد جاء ، فتلهث خلف تموينها .. تعض عليه بالأنياب والنواجذ ، وأضراس العقل، وتلهث خلف نسائها المفجوعات ، تريق زينتهن ومغرياهّن ، وتغلفهن (بالخيش) و (الدمور).

كان (الإدريساوي) فيما مضى زوجا لواحدة من أفخم حريم القبائل .. (عشمانة الهيلبابية)... والتي قالت الأقاويل البيئية المستقاة من التاريخ العجوز ... إنها كانت مثل الظبي لكن عينيها أوسع ، ومثل نمر (الميروك) لكن عطاءها أشمل ، ومثل (غرغرة المسكيت) ، كلما شاخت .. كلما نضج طِيبها . وأضافت الأقاويل ....

(عندما خرجت قصيدة (طه) من قريحته المرتّجة ، انطلقت النار فينا ، لم نعد نستطيع الصبر ، حملناها على ظهورنا وألسنتنا ، طفنا بها على جميع (عشمانات) البلدة ، كنا نجد في كل واحدة منهن شيئا منها ، لكننا عندما ألبسناها (عشمانة الهيلبابية) أصبنا بالذهول ،

كانت عينا القصيدة هما عينيها ، الأنف أنفها .. النهدان نهديها والردفان أيضا ، حتى تمايل وسطها كان مدوّنا في وسط القصيدة ، ملأنا البلدة بالهمس ....

– هي الهيلبابية .. هي الهيلبابية ... هي الهيلبابية).

ذلك اليوم سُمع همس الأقاويل بسخاء ، استيقظت سيوف (الهيلباب) و لم تنم ، شكلت مع السيوف القبلية الأخرى الناقمة على (عشماناتها) أعظم كرنفال للشر تشهده البلدة الغبارية منذ أن كتبها (إدريس إدريسايالحاوي) منذ قرنين من الزمان ، تماسك الكرنفال بشدة ليحاصر (العمش) ، وتطيش وحداته المعنية على (العشمانات) مطلّقة ، ومذلة ، ومهينة ، وسافكة للمسْكنة . مات ثلاثة منهن كانت أجلهن (الهيلبابية) ، وعندما دفنوها أحست القهوة أنها فقدت خامات المزاج ، وعصيدة الدخن، أنها تؤكل بلا اشتهاء ، أحس نهر (المبروك) أنه يسقى بلدة جاحدة ، والنساء اللائي توحمن على وجهها تلك السنة ، بكين بدموع الرحم والمبايض . غسل كبير (الهيلباب) في ذلك الوقت دموعه بدموع أشد أسفا ، وضع يده على يد (الإدريساوي) قائلا ..

– فقدنا واحد يا خال ... عوضنا الله وعوضكم .

تبعه كبراء الأدارسة ، والكريكاب ، والتالاب ، والبحراب ، والدخوليين ، وعشرات القبائل الهشة ، حتى كبير العمش زحف بظهره الدامي ، وأطرافه المأكولة ، أمسك بحزن الإدريساوي نازفا ...

– فقدنا واحد يا عم ... شفانا الله وعوضكم .

لكن الإدريساوي كان قد اعتل فعلا ، لم يبك و لم يتلعثم ، و لم يقل وداعا للقبر الذي تأخروا في ردمه قليلا في انتظار تأزم زوجي ، بغتة تشيطنت نظراته ، ونزّت رياله وتورم نصفه الأسفل ، وانطلق يعدو في البلدة .

واستيقظ (طه الأعمش) بعد ستين يوما عرقت فيها الوقائع و لم تجف ، حرّك حواسه وانتبه ، وجد الأقاويل البيئية جالسة عند رأسه وهى أشد انتباها منه ....سألته ..

- هل استيقظت ؟

قال ... نعم .

فتسربت بخفة من أمامه .

بغتة وجد جلده مسلوخا ، وعينيه (مطبوزتين) ، وقدميه تشويان في لهب حي ،وشاعريته التي أنفق أربعين عاما في ملئها، خاوية تماما . وجد أصدقاءه كفّارا ، وأعداءه يشعلون الكُفر الصديق كلما خبا .. استغربت آلامه بشدة ، ونط من حلقه المخربش صوت مهلهل ....

- أنا طه .. أنا طه .

عاتبته الظهور المسلوخة بعناق السياط ، وأعراض الوحم الجريحة التي انهمرت من نساء قبيلته، زحف كبير (العمش) على يديه وركبتيه ، أمسك بصوته المهلهل ، ألقى به على الأرض ودهسه ، وبلغة قبلية شديدة التعصب ، خلت من أى مؤشر للعطف أو الحنان ، سَردت للأعمش وقائع الستين يوما التي عاشتها البلدة الغبارية , كانت القبائل كلها حاضرة ، تحكى وتنصت ، وتنصت وتحكى ، حتى أُنهكت الوقائع من كثرة اللت والعجن ، واستأذنت لتستريح نفسها قليلا .

عند ذلك ضحك (الأعمش)، قالت الأقاويل المستقاة من التاريخ العجوز إن الضحكة خرجت من قلبه وحلقه ، وعينيه ومسام جلده، وعدت في البلدة والبلاد المجاورة ، متغذية من دهشات القبائل ورطاناتها المصعوقة ، وظلت تعدو لعام كامل بالليل والنهار حتى أصبحت جزءا من معمار (توجار) قبل أن تقضى عليها عوامل الحزن والتعرية ....

قال من بين أنفاس ضحكته ...

- ماذا تعني (آش- مانة) في لغتكم ؟

رطنت القبائل ...

- تعني الغنيمة .

إذن حلوا تِكّتي تجدوا (آش- مانة) .

حُلت التكة بعثات الأصابع القبلية ، وخرجت من باطن العرى ساعة يدوية لم تر القبائل مثلها من قبل ، كانت صافية الوجه ، لها عينان تشعان حنونا ،وقد كُسيت بالذهب والفواريص ، وعُطرت (بالشاكوبن) ، حتى بدت أشبه بوجه سقط عن عروس،تناقلتها القبائل قبيلة ... قبيلة، قبّلها البعض ، ومسح البعض على وجهها الصافي ، و(تفتون) أوكير التالابي الذي كان في ذلك الوقت خطيرا في الثلاثينات ، سنّ خنجرين وطلب قتالا خاصا من أجل (آش- مانة) لكن أحدا لم يلتفت إليه ، فقاتل عدة أشجار من المسكيت وعاد منتصرا يطالب بغنيمته .

قال الأعمش ...

- هذه (عشمانة) ، عثرت عليها في أحد الخيران ، عطّرتها بالشاكوين ، وخبأتها في تكتي ، كنت أخرجها في الليل ، أكلمها وتكلمني ، وقلت فيها قصيدتي الملعونة .

قالت الأقاويل ... إن القبائل أسهلت واستفرغت ، رفعت الكلفة بين الزعيم والمُتزعّم ، الوسيم والدميم ، المرأة العاقر والمرأة الولود ، ومجالس العُمد ومجالس الرعية ..... أيام من الشجن المهووس وعادت الحياة إلى توجار ، لكن (الإدريساوي) لم يعد أبدا ، لّموه من بكاء الشرف ، والأشلاء الممزقة ، بخّروه (بالقرض) و (التيمان) ، لسعوا جسده بعثات من نمل (الشحاميط)، حملوه إلى قبر (الحاوي) في الجزء المحترم من المسافة بين البلدة ودلتا نهر (المبروك) ، مرغوه في التراب الناعم ، أمسكوا بيديه ، رفعوهما إلى السماء ، فكانوا يزيدون العاهة اتقادا .

عشرات الاجتماعات القبلية تصدت ، كانت الرطانات تعلو وتخفت ، وتشّابك وتنفض ، برطمت خناجر (التالاب) بطريقة الجمل الذي لا يعرف اعوجاج رقبته ...لو كان منا كنا

علقناه على جذع (مسكيتةٍ) عجوز ، أو دفناه في بئر .. أو نحرنا عنقه هكـذا ... وفـاضت الخناجر لتنحر عشرات الرءوس الضأنية تعميقا لبرطمتها . نكست خســارة (الكريكــاب) رأسها ، قالت ... لو كان اليتيم حيًا لأقتفي آثار عاهته واجتزها من عِرقـها ، حـاد حيـاد الدخوليين ، والبحراب ، والشنكت ، والتكارنة ، بكى بكاء العمش القديم والحديث ، نبعـت همهمات السخط من قبور المنتحرين الجرابيع ، وهزت قرابـة (الميلبـاب) و (الأدارسـة) جذورها أسفا .

في أحد الأيام حطت العاهة في بيت (كريكابي) ، على عدة نساء كن يدربن عروسا علـى الشد والجذب ، والمراوغة ، وحوار المتزوجات ، تمهيدا لزفافها الوشـيك ، حطـت عليـهن متبرجات ، متلاحقات الأنفاس يؤدين مشهدهن الأخير . انغرست الريالة ، وانفلت الصـراخ ، ولمعت عيون الشر . عند ذلك حلّ المتفقه التوجاري (المجذوب الإدريساوي) لحيتهالتي كانت تُلقّب بسحابة المطر كناية على ثقل تكوينها ، وعشرات المخارجالتي كانت تحفرهـا في تـأزم البلدة الغبارية .

كان المجذوب طفلا عندما ابتسمت لحيته ، وغلاما عندما ضحكت، وشابّا في أوجّ الشـباب عندما امتدت قهقهتها حتى أسفل بطنه ، لم يره أحدا يمازح صغيرا ، أو كبيرا ، أو يضحـك أو يبك، أو يركب على ظهر دابة ، أو يضع قدمه على حدود أبعد من حد توجار ، كان في عينيـه شعاع غريب ، وفي دنياه تفقه لو قُسّم على إرث القبائل لكفي ، هوالذي اكتشف (غرغـرة المسكيت) عندما يبس حلقه ذات يوم ، وأصبحت فيما بعد جزءا حيويا من طِب القبائل ، وهو الذي قال للعمدة (إدريس إدريساي) في يوم تنصيبه عمدة لتجار ، امتدادا لسيادة الأدارسـة على البلدة الغبارية........

- احضر عراريقك وسراويلك ، وعمائمك وجلاليبك ، وان استطعت أن تحضر شـهوة الليل، احضرها ، دع الناس يروا كل ذلك حتى إذا زادَ عرفوا.

وعندما فاجأه (حليمو) متشنحا خلف ابنته (عواطف المجذوب) بعد سنوات طويلة من ذلك ... قالت الأقاويل الراكدة تحت ثياب العنصرة ومجد الأدارسة القديم ... يا مجذوب ، أكرمه في بيتك كما تشاء ، اطعمه واسقيه ، واطرده عندما يتجشأ من الشبع .

حك (سحابة المطر)التي كانت قد بدأت تتيبس في ذلك الحين....

– والله لو جاء مهاجرا خلف لحيتي هذه ، لعلقتها على ذقنه .

وكان ثناء الدنيا الوحيد الذي حصل عليه ، جملة مختصرة من مناصري تعليم المرأة وصلت إلى البلدة قبل رحيله بأعوام قليلة...

(شكرا مجذوب ... لقد كانت قهوتك مدهشة .. و(عواطفك) أيضا) .

نزت سحابة المطر حتى طغت على شر التالاب ، وخسارة الكريكاب ، وبكاء العمش ، وحياد الحياديين ، وأسف الهيلباب والأدارسة ....

– اجعلوا من أشهر العاهة أشهرا للشدة ... امنعوا زينة (العكش)، وعطر (الشلكوين) ، وكحل العيون ، والبسوا النساء ملابس من الخيش والدمّور .

طُبّق رذاذ السحابة حرفيا ، فافلح في إنهاك العاهة لكنه لم يمتْها ، وعندما نُسيت (تمام الإثيوبية) بعد ذلك بأعوام طويلة ، من قِبل الجغرافي (كنعان العجوز) ، واشتهرت بتذوقها لثقافة الليل ، كان (الأدراسة) يستأجرون نهارها سرا كمصبٍ لعاهة العم .

بلا مقدمات كانت العاهة جبّارة في لحم الإغاثي وتزاحماته ، وجهامته، وتكبده مشاق السفر، لم تلهث إلى عرى العربات كما لهثت تناقضات البلدة ، وقد ساهم توعك الإثيوبية وتقيؤها ودوارها الشهرى في طرد العاهة كاملة إلى الطريق ، وساهمت ملابس الدمُّور والخيش وغياب المغريات ، في هشها عن شاغلات الطريق ، لكنّ خريطة الجسد الإغاثي بشحمها الكثيف ، وخلوها من أى تضاريس خشنة ، كانت هي المحرك الرئيسي ...

كان الإغاثى يصرخ ....

- يا يسوعَ .

وتصرخ العاهة ...

- يا بنت الكلب .

- يا جد ميخا .

- يا بنت الكلب .

استحت القبائل حتى احمرا إرثها وحاضرها ، تكالبت على العاهة، شدتها من لحم الإغاثى ، ومضت بها بعيدا .

وفي ثرثرته الليلية في مطعم (حليمو) فيما بعد ، قال الإغاثى... إنه أحس في ذلك اليـــوم بالخشوع ، وهرعت إلى إيمانه العاق آيات مقدسة لم يسمع بها من قبـــل . وعندمـــا شـــدّوا (الإدريساوي) من لحمه ورطنت القبائل مفسِّرة ومعتذرة ، كان لابد أن يأذن لشاربه بالنفنمـــا كثيفا ومعقدا.

-٨-

- قدمي باقة الزهور للسيد ألبيرت بشّاي .

لكزت (عواطف المجذوب الإدريساوي) تلميذتها الأكثر نضارة في المدرسة الإبتدائية (تماضر إدريس) ، وهي تجاهد أن تُسكت غثيان المساء والذي ظلّ مرادفا لأحمالها العديدة منذ أن اقتحم (حليمو) كتبانها التربوية ، وأطعمها مكوّنات العيال في لياليه المُنهكة .

كان ذلك في يوم (كرنفال الشكر) الذي احتلبته التوجارية من قراءاتها المتأخرة لحضلوات (الساميا) ، والهنود الحمر ، ومناهضى الإستعمار الأخلاقى وهم يبكون بتراثهم ، ويصرخون بألوان قمصانهم .و (توجرته) ببراعة أدهشت الإغاثى نفسه ، زركشت فتياتها الابتدائيات بخيوط الكتّان الملونة ، وأشرطة الشعر الحمراء ، بيّضت وجوههن ببودرة (التالك) الحرارية ، وأنفقت معهن يوما عصبيا في اقتفاء آثار زهور (البَرَم) وتنقيتها من طفيليات الدلتا ، ورصّها في وعاء من الزجاج.

وفي الساحة الخلفية للمدرسة الابتدائية حيث رُسِمت بإصرار مربعات(الحِجلة) ، وحبال النط ، وآهات العشق الظلامي ، ومئات الإستفراغات لكحوليين عابرين ، ركضت مكانس الكنس ، ودوارق المياه ، ومطهّرات (الديتول) ، ورُصّت البروش السعفية والقبائل ورطاناتها . وفي الوقت الذي سمحت فيه التوجارية لأُمومتها الغائبة نهارا كاملا بالتواجد في البيت ، حيث أرضعت طفلا ، وأنامت آخر ، وشدت ثالثا من مخاط أنفه ، تولى (حليمو) قيادة آرائها ، قام بإقناع (الأدارسة) بتمويل الكرنفال، و (الهيلباب) بنفخ أشداقهم الصبورة ، والتحرك بها بحذر مبهرج محاكاة لبالونات الكرنفالات الحقيقية ، و(الكريكاب) بطنبرة المساء ، وإحياء أغنية (أمسك حرامى)التي رُدّدت في زمن (اليتيم) ، وكان لمدلولها الفضائحي هيبة مكملة لريادة اليتيم وتفرده ، وإبهاره .

حتى سرور الأمدرمانى أشركوه ، وسعدية شاشاي استغل لسانها الأقاويلى في لملمة البلدة وحشوها في الساحة الخلفية للمدرسة الابتدائية .

على الحصاد التالاي كان الحصاد وعرا ، برطمت عضلتان وجهيتان للزعيم (أوكير) ونط من ضيق أخلاقه صوت أرعن...

- لن أتنازل عن خنجر واحد من خناجري ليهدى إلى غريب أملس .

تغضنت الوجوه النضرة لمندوبي الكرنفال من صبيان الأدارسة، وكشف التصاق سراويلهم تلك السمعة الكاذبة لنبات (العطرون) الذي دبغوا به أمعاءهم تحسبا لأى إسهالات فضائحية ، خرجوا من برطمة الشر بمعجزة ، وعندما وصلوا إلى ساحة الكرنفال ، كانوا قد وضعوا دون أن يدروا أول لبنة لرياضة(الماراثون) في البلدة الغبارية .

قال الإمام إدريس أحمد ...

- على بركة الله .

ارتدى تدينه الفضولي وذهب .

وجاء شعراء اليوم الأول لانشقاق النافذة البدينة بقصائد شبعانة تجشأوا بها وبكوا .

كان العمدة (إدريس إدريساي) معتكفا في ذلك اليوم يجرى مشاورات غاية في التكتم مع الجزء الطمّاع في نفسه ،كان ذا خبرة في اقتياد الدنيا لدرجة أن لجاماته الحياتية امتدت حتى أحياء العاصمة المعطرة ، واحتلبت من أحشائها العطر ، كانت زوجتاه توجاريتان لكنهما فاخرتين، وعياله أدارسة لكنهم نعموا بعدة أصياف معتدلة على ضفاف النيل ، لا يعرف أحد كيف يجمع ويبعثر ، وفي أى مضمار تركض أفراس ثروته ، وقد سمت الأقاويل البيئية عددا من نشاطات الكسب باسمه ثم عادت وألغتها وفي أحد الأيام كادت ابنته التي تتلقى تعليمها في العاصمة تصاب بسكتة الدماغ ، كانت غارقة في استرخاء الظهيرة في بيت للطالبات عندما فاجأها غرباء أنيقون بقصات الشعر (الكلاسيك) وعطور (الجاجوار) و (الأوبن) ، طلبوا من سعادتها نقل تمنياتهم القلبية بطول العمر ودوام الصحة والعافية للعمدة (إدريس إدريساي) بمناسبة بلوغه الستين .

- من أنتم ؟

صرخت بنوتها .

- نحن مستأجرو أملاكه في العاصمة .

-لابد أنكم مخطئون .

وضحت بنوتها بالرعشة الأخيرة التي تسبق شلل الأطراف .

ضحكوا برهة أوضحت كم هم فاتنون وبديعون ، وحريصون على وسامة أسنانهم ، حتى ألسنتهم كانت تتهادى بدم لطيف وبصاق شديد الرقة ، ثم قام بعضهم بتقليد مشية والدها ، وبعضهم صوته ، ورقدت إمرأة منهم على الأرض راسمة بإتقان اتكاءة العمدة إدريس إدريس الي المزاجية والمزمنة عندما يدخن سيجارته اليومية الوحيدة .

تنهد بفزع ، في الأربعين والخمسين من عمره كان حتى إمساكه المزمن يساهم في يقظة أفكاره ويمده بعثات الحيل و لم تكن فكرة كفكرة تحويل مصبات الإغاثة إلى كتر تأخذ أكثر من اعتكاف دقيقة أو دقيقتين ، أما الآن ....

- يريدونك أن تلقى كلمة البلدة في كرنفال الشكر .

اقتُحِم اعتكافه بمندوب كرنفالي .

- لقد ألقاها إدريس أحمد في صلاة الجمعة .

سقط قلم التخيل من ذهنه .

- تلك كانت خطبة الجمعة سيدى العمدة .

- حسنا .

قالها بطوله وعرضه وعموديته الحقيقية ، ثم نهض لقتاله اليومي ضد أشهر إمساك في البلـــدة الغبارية .

كانت كلمة المختفي به هي الأكفأ في فوضى الكرنفال ، ملأ الإغاني جلبابها الكلاســـيكي بوعي ، كانت نحنحته مشعة ، ابتسامته منبرية ، وشربه المتقطع للماء وتوقفه بين الحين والحـــين استدرارا للتصفيق ـــ كل ذلك ينبئ بثقافة عالية ، في البداية أهاجت زهور (البرم) المـــهجَّرة من الدلتا حساسية غافية لديه ، ثم ما لبث معناها الشبق أن التهم العطس والدموع ، وحكـــة الجلد، وعندما أُغلقت فقرة المختفي به أخيرا ، انفتحت فقرات مربكة في ذهـــن (حليمـــو) ، تعطرت جلسته ، وبدأت أفكاره تتعارك نازفة تصميما فذّا لليل الثرثرة في البلدة الغبارية .

الفصل الثانى

-١-

خمسة أعوام منذ أن انشقت النافذة البدينة ،حبل الخريف وعقر .. رطن (الإيتاب) رطاناته وتلاشى ، وابتل الوطن بتشوة البرق العبادى والدمع أيضا وجف ، ظهرت موضة الفقـراء ذوى الجباه اللامعة واندحرت ، وموضة التسكع ، وحيل الرفض واندحرت ، وموضات (الميني جيب) و (المايكروجيب) والأناقة تحت أقمشة (الترجال) و(التريفيرا) واندحـــرت ، علــت أصوات التجارة لمغنيات (القعدة) و (البنابر) ، وحاصدات العرق المهاجر وخفتت ، وظهر (بلبل قبارا) بمسمياته العنيفة ، وكيانه العضلي الصلد وطاف بربوع الوطن متسلقا بكاء الصبيــة، ودهشات الشباب ، وزغاريد النساء ، ونُطف الآباء في أحلامها البعيدة . كان يأكل الحصـــى والنار ، ولحاء النيم والتبلدى ، ينام على ألواح الخشب المرصّعة بجنون المسامير ، ويجر عربـــات (المجروس) والجيب ، وشاحنات الخدمة الثقيلة بأطراف لحيته.... ثم اختفي .وفارت أغنيـــة(البنسلين يا تمرجى)التي صاغتها الأمراض والعلل ، ولحنتها المراهقات تحت أخيلـــة الكبــت، ودغدغة (السيشوار) و (الشامبو) لتراحم السلام الجمـــهورى في بطشـــه وســـيطرته ... ثم اندحرت . فازت الفرق على الفرق ، والفرق الأخرى على الفرق الأخرى ، غصّت إختـلالات الأعصاب بآلاف العطاشى والمحبطين ، نامت الشهوات على أقفيتها واستيقظت ، حكّـت دول الجوار حدود الوطن ، خربش الوطن حدودها ، سنّت ألسنتها .. سنّ ســـكاكينه ، ضحــك اليمين، بكى الوسط ، وضع اليسار يديه في موضع القلب.

وفي ذلك الوقت طالت ألسنة الإغاثة حتى تجاوزت حلوق العربات والشاحنات ، وبــدأت تتحدث من الجو ، وأصبح لها مصففون ومزينون ، ورواد في الهدم والبناء والتهجير ، والتوطـين ، وإسكان أعرق الأسر العالمية على أغلفة العلب وثياب الزيت والدقيق ,

ظل الإغاثى راكدا في البلدة كأنه نمر عجوز ، تجرحت حوائط الطين بتذكاراته الغريبـــة ، عكست طيور (القيردون) هجراتها الخريفية فرارا من صيده العطشان ، أقسم مرارا أن حـــى (الرديف) العاصمي العشوائى من صنعه وحده ، وأن قبائل الدينكا والشلك والتحر والنويــر ... الجنوبية، أسرفت في البكاء وأفسدت منابع النيل عندما نام ملدوغا بفـــوج مـــن ذبـــاب

(التسي-تسي) وفاجأه عشرة رؤساء لعشرة دول مغاثة بزيارات دامعة ومكلّفة . حتى فكـــرة تنقية مياه (الفولات) في غرب البلادالتي قذفت بعدة إقليميين إلى الشهرة ، قال الها من نبشـــه ، ووسادات النوم المصنوعة من صفق (القنقليز) قال أنه ابتكرها رأفة بالطبقات الفقيرة .

كان في وجهه فخ مبتسم ، كانت إحدى أذنيه ترتعش ، وقد سمنت جلسته بمرور الأيـــام ، تراكمت على جوانبها الرطانات ، حتى فكر (حليمو) في تعديل مطعمه واقتفاء آثار الثروة من جديد .

في أحد الأيام كان عطاء الثرثرة كثيفا طغى على رائحة شواء (الزراف) تلـــك الوجبــة الجبارة التي فخخ بها حليمو مطعمه ، وشكل بها مع التريف اليومي لليل الثرثرة اتحـــادا مربحـــا وعظيما، تطاول العطاء على فتيات في بواكير الغزل ، وزنوج بـــأنوف فخارية ، وزواجـــات وطلاقات حررتها الصّدف ، وانتهت فضلات للسان مثرثر ، استدعى عدة سيدات من مجتمـــع منقّب ، عراهن في بلدة غبارية ، ومشجعين لكرة القدم ، أوقدوا نارا همجية من عمائمـــــهم : وهتفوا بحياة ألبيرت بشاى عندما سند ناديهم بفانلات اللعب ، وكرات التدريب ، ومزيـــلات عرق اللاعبين .

صفق الجلساء انبهارا ، طلبوا أطباقا إضافية من شواء الزراف، عند ذلك زحـــف صـــوت شاب اندس في لحم الثرثرة متحرشا بها وظهر من خلف الصوت وجه بدأ يتخطط بالشــــعر ، وعينان بدأتا تلتقطان ، وملامح أخرى شكلت الكيان الجديد (لإدريس سعيداي).....

– هل أحببت من قبل يا ألبيرت؟

كانت الثرثرة كأنها تنتظر مثل ذلك التحرش ، اشتعلت بشدة...

– نعم ... (سوشيلا) فتاة (الزاندي) ... كانت بلون البن.. لم أرْ امرأة أجمل منـــها في حياتي .

– وهل تزوجتها ؟

أضاف الكيان الجديد ، واعتدل في جلسته .

ثبّت الإغاثى مشطه الخشبي على شعره المنكوش بنكشة توجارية، وتكته المصنوعة من (التيل) على سرواله (الدمّورى) ، بصق نهرا من ريالة (التمباك) على الأرض وبكى ...

- آخ ... سوشيلا ضحية الحرب الهمجية .. قتلها رصاص صعلوك اقتحم نافذتها وهى تحلم..ربما كانت ترتب بيتها ، وتسمى أطفالها القادمين ، وتعد غداء (الفيتريتة) لزوجها الحبيب، ماتت سوشيلا وهى تصرخ ... يا ألبيرت .. يا حبيبي ... يا ألبيرت ... يا حبيبي ,

وبكت الثرثرة كما لم يبك أحد من قبل في البلدة الغبارية ، وفي ذلك اليوم اتسخت سكرة أنيقة كان يتزيا بها (سرور ود طاهر) ارتعد الشارب حديث الولادة (لإدريس سعيداي) ، أحس آكلوا شواء الزراف أنهم أكلوا دموعا ، وأغلق (حليمو) مطعمه المفخخ وهو خائض في الدموع .

حملوا (الإغاثى) إلى بيته التوجاري العكر ، حاربوا رعدته بألحفة الصوف والمواساة ، ورطّبوا حلقه (بغرغرة المسكيت) وعندما عاد إلى جهامته وتزاحماته أخيرا ، كان الصباح يأكل لقمته الأولى من لحم الليل .

في اليوم التالى وعندما تكاثف الليل ، واختلط عطاء الثرثرة برائحة الشواء ، جاء الكيان الجديد مرة أخرى ، كان يرتدى سروالا وقميصا أنيقين ، يضع على عينيه نظرة مشعة ، وعلى رأسه مشطا لامعا من خشب المسكيت ، حام حول الثرثرة قليلا ثم تحرّش بها .....

- هل أهديت لسوشيلا شيئا يا ألبيرت ؟

حاول بعض الجلساء أن يفتكوا بالكيان مخافة أن يفسد ليلهم ، ابتدأت سكرة (ود طاهر) تتسخ ، ورطانات بعض القبليين تأخذ شكل الوجع ، وارتعد (حليمو) بشدة وهو يحصى بأصابعه تكاليف اللحم ، ويخطو باتجاه مواقد الفحم ... لكن الإغاثى ضحك هذه المرة حتى رقصت لوزتاه في قاع حلقه ...

- نعم ... أهديتها خاتما ذهبيا رائعا .

ابتسم الكيان الجديد ، انسلخ من لحم الثرثرة ، وانطلق إلى بيته .

كان (إدريس سعيداي) فيّ اليوم الأول لانشقاق النافذة البدينة قد اكتشف رطاناته تماما ، اكتشف رطانات أهل بيته ، وأهل البلدة جميعا ، وابتدأ تذوقه للحياة في (توجار) يأخذ شكل الصقور النهمة ، والرياح غليظة الأنفاس ، والأحلام غير المجديةالتي يتصيدها كل ليلة ، راقه شعره الأثيوبي الناطق بخشونة البيئة وإخفاق الدماء العربية في حقن جيناتها بجدارة ، وأنفه المنتصب كأنه جنرال في قلب معركة . أعجبته توافه المراهقات التي كان يلتقطها من حين لآخر ، وتقليعة المشي على رءوس الأصابع التي ابتكرها ،ودرّسها لكثير من الصبية فأتقنوها، وأجحوا بها الدروب دالقين لشيطنتهم الصبية .

في وسط ميراث البلدة صرخ ....

- تبا لكنعان وقسمه .. واليتيم ويتمه ... والمجذوب وسحابته الماطرة .. والأعمش وعشماناته .. والحاوي أيضا لأنه بنى مرحاضا اسمه توجار .

وفي وسط إخوانه ذوى الأنساب المنتقاة تعسفيا تعفرت ، وتكهرب، وجن .بصق على قدور السمن ، وخامات العجين ، وخنق واحدا من مثقفي الليل وجده خائر القوى بعد أن أنفق تسعة أعشار الليل يأكل دفئهم العائلي ، جرّه إلى صباح الأقاويل عاريا حتى من النطق ، ثم عاد إلى أمه ، أراق مغرياتها وعطورها بعفرته ، كسر بكهربته زينتها (العكش) وأنظمة (الكوفيت) وإدلاء الضفائر ، وبجنونه شك أذنيها حتى انغرست رماح الجنون في قاعيهما ....

- في المرة القادمة سأهد هذا البيت عليك وعلى عيالك .

ارتعبت (الإثيوبية) بشدة ،تنتف شعر رأسها ، وتقلص ميضاها، وداهمتها كوابيس اليقظةالتي كانت قد انقطعت عنها منذ أمد بعيد . ذاقت المر والحنظل ، وتمنت في أوج رعبها لو ماتت بمضاعفات (الزهري) أو حمى النفاس ، أو انشق رحمها إلى شطرين .

عشرون عاما منذ خرج (كنعان العجوز) دون أن يكتشف حتى منابع أخطائه . لابد أنـه نسيها كما نسى كتبه وخرائطه ، وقسمه، ومنظفات أسنانه ، وكثيرا من الإعوجاجات الـتي لم تجد من يقوّمها أبدا ، كان العجوز فاتنا ورقيقا حتى وهو يخطئ ، ويضفّر الأخطاء في عقـود لا تنتهي .كان صوته يشوبها حيث يهمس.....

- أين خريطة البحيرات المُرّة يا تمام .. أريد أن أحليها من عينيك .

- خذى مقباس الرسم يا تمام .. ارسمي على قلبي شمعة .

- تعالى يا تمام ... أريد أن أدخلك كتاب الجغرافيا حتى أواصل حبك وأنا أعمل .

لا تنسى تلك الليلة عندما التقته في فوضى (أديس أبابا) ، كانت ثلوج الرغبة قد بـدأت تعربد ، أشعل مصممو الفوضى تصاميمهم، ولهثت أغنيات (الجاز) العكرانة حتى تقطعت منها الأنفاس . كان ثمة استعماريون بلحى تقاعدية وعقاقير مضادة للهلع، وتحرريون أسرفوا في الغناء حتى أدركهم الخرف . كانت ثمة فتيات بأجساد مجرمة ، وعيون غزلانية ... كان ثمـة قـرن أفريقي يتثاءب لكنه متماسك . وعندما نقش (منلوك آدم) لحنه الأخير في لحم الفوضى .....

WITHOUT HOW
AND WITHOUT WHY
ADIS BYE BYE
LET US SAY BYE
WITH BROKEN HEART
AND RAINY EYE

نبع العجوز أمامها حكّ ليلها ودوّخ مساحة العمر بينهما ...

أريد أن أغسل بك شيخوختي يا فتاة .. هل تقبلين ؟

كان شيخا .. شيخا غزير السنوات لدرجة أنها استغربت كيف يضحك دون أن تتسـاقط حباله الصوتية ؟

كيف يمشي دون أن تتفتت ركبتاه ؟

كيف يتفوضج دون أن يتآكل ؟

وكيف ينام دون أن يغدر به النوم ؟

وللحظة قوّست حاجبيها ثم ضحكت ، واستمرت تضحك لمائة وعشرين يوما ثم ......

نهضت من رقدة الرعب عارية لا تزال ، كانت في الثالثة والأربعين ، مرهقة حتى عظام العصعص ، تحسست مغرياتها التي حلبت بها الرزق طيلة عشرين عاما ، جسدها لم يعد حريريا كما كان ، عيناها لم تعودا ضاحكتين ومبتسمتين ، ثدياها لم يعودا شتاءيين ، وربيعيين ، وخريفيين ، كانا صيفان خائنان امتدت خيانتهما حتى السرّة ، حتى ساقيها اللتين كانتا تجرفان اللعاب والفرجة ، وهرمونات التهيج ، انطفأ فيهما البريق . كانت امرأة منهكة ، ولو قُدِّرت ثروتها من المغريات في ذلك الوقت لكانت لاشئ .

هبّت إلى بقايا (الدلكة) و (الشاكوين) .. أكملت إراقتها .

وصراخ (العكش) ..... فأجهزت عليه .

وفي ذلك الصباح بركت على أرض الشقاء المغاير ، جهّزت تسعين قدحا من عجين الدخن ، حملتها على رأسها واتجهت إلى سوق البلدة .

ذلك الوقت كان العم ضرار الإدريساوي وعاهته قد سقطا أسيرين لمرض (الجندب) الذي عُرف بسوء سلوكه ، وشراهته في أكل عظام الوركين ، وإرسال ضحاياه إلى سكرات الموت أياما وإعادتهم . كانت قد أهدته طفيليات حدودية لشخصيات محددة في توجاز ، كان معظمها درويشا وابلها ، كانت العاهة تستيقظ بنوم المرض ، تصرخ وتصرخ ، ثم لا تلبث أن تغيب عن الوعي ، عندما يستيقظ المرض ويمسك بأنفاسها،وعندما مات وماتت عاهته بعد عدة أشهر من ذلك ، تنفست البلدة ارتياحا، سقطت أغلفة الخيش والدمور والقبح المصطنع ، وعادت تجارة المغريات وتوابل السعادة الزوجية إلى سابق عهدها قبل أكثر من أربعين عاما ، وفي قمة

انتشائهم بالحدث اكتشف الرجال أنهم كانوا يعاشرون نساء متشققات بحساسية الخيش ، ولهن كنّ يخفينها طيلة تلك السنين بمهارة ، حيث دربن أظافرهن على السكوت ، وكن يملأن الشقوق على أجسادهن بخلاصة العجين فتبدوا في ليالى الرغبات المِلِحّة أشبه بمساحيق شديدة اللعنة والإدهاش .وفي اليوم الذي اكتُشف فيه الداء واعتمد رسميا من قِبل الأقاويل البيئية ، ظهرت الكريكابية (سعدية شاشاي) ، ظهرت في سوق البلدة حيث اعتادت في سنواتها الأخيرة على بيع عجين الدخن ، كانت شبه عارية ، جسدها عجوز لكنه حي ، ليس به أي أثر لحساسية الخيش . وفي ثرثرته الليلية في مطعم (حليمو) ظهر الإغاثى بحاجبين هلاليين ، وقد أعفي شاربه من مهمّته المعقدة .

في طريقه إلى البيت كان (إدريس سعيداي) متوهجا ، كان يردد أغنية ولدها ثوار بعيدون وهم يحررون مدينة بعيدة ، أفطر معهم بالغضب ، وتجلى بتجلياتهم وعندما استلقى على المقطع الذي يحكى ....

(دق البطل على باب المحبوبة ...

أهداها عرسا وأساور من ريح ودماء ..

فتحت عينيها ..

طار الحلم الأعمى .

والكحل الأعمى ،

والأجنحة المقصوصة أيضا طارت.

قالت .. إضحكنى أكثر ..

قال ... اليوم فتحنا الحلم ...

اليوم فتحنا الحلم .

وقبّلها) .

ضحك . ثم أفلت قبلة في الهواء سقطت على عاشقة نائمة فأحجتها ، قال في نفسه ...

– أحب أن أفتح أحلامك يا تماضر إدريس .

وخطا إلى داخل البيت .

كانت قد تبقت لدى (الإثيوبية) بعد فرارها من الذبح الليلي ، أربعة أساور من الذهـــب ، ضجّ بها معصماها أيام مجدها(الكنعاني) وما قبل ذلك . كانت عبارة عن نصيب عادل في يـوم فراق حكيم ، اكتفي فيه الحبيب بدمعتين أخويتين ، آختهما الإثيوبيـــة خصيصـا لوداعـــه ، احتضنهما ، قبّلهما قبلة الأخ الأكبر، ووعدهما بالفُسح والهدايا والأراجيح ، ثم قدم لها تلـــك الأساور محمولة على ظهر عبارة الفراق الأتفه من نوعها في العالم والتي لم تولد من بعدها عبـارة أشد دمامة برغم المحاولات المضنية لأجيال العشاق في أكل الحزن ، والحمى ، وتسميد القلـوب بالجراحات الجيدة ، وغرس الفراقات ورعايتها ....

– هنالك ألف من يتمناك ... لكن الزواج قسمة ونصيب ... أتمنى لـــك الســعادة في حياتك الجديدة ... وهذه الأساور للذكرى.

وبرغم أنها لم تكن تخطو نحو أى حياة جديدة في ذلك الوقت، إلا أن لهجتـــه البرتقاليـــة ، وعينيه التفاحيتين ، وقميص التعاطف الذي كان أحمر فاقعا ،وتطاير الورود من بيت شفتيه وهو ينطق (بالجديدة) أعطى لها شبعا ملائكيا ، ظل ينفخ عاطفتها حتى ظهر (كنعان) واختفي . أجّل من تقدم جسدها لأوراقه الثبوتية، من خروج حاجبيها إلى الطريق بتكحيل بنات الهـوى ، من تناثر عطور النرجس شديدة التهيج ، وجونلات الحروب الغرائزية على ليلها العائلي لايـزال ، كل ذلك فطمها قبل أن ترضع ، نثر على شبابها الساذج عددا من جوارب الزوج ، وبذلاته ، وأرقد بجانبها شخراته المقلقة وهو نائم لا يحلم إلا بها، مضغت العبارة الأتفه من نوعها بحـرص ، تناولت أساور الذهب، فخخت بها معصميها ، وانطلقت تزن سعادتها في فوضى (أديس) .

وفي سنوات ترعرعه الممزق في بيتها الغرائزي ، شم (إدريس سعيداي) تلك الثروة ، شمها من عطر العناية المكثف الذي كانت تعطرها به ، وفي إحدى المرات تشيطن حتى فاجأها وهي تقتلعها من باطن الأرض ، لكزها بصوته الصبي ...

- لماذا تخبئين هذه الأشياء يا أمي ؟

- أخبئها لك ولإخوانك حتى تكبروا .

ابتسم الصبي ، شدّ لجام عصاه المسكيت ، وانطلق صائحا ... عر ... عر.... عر .

وعندما أوجعها بصوته الغليظ بعد ثلاثة عشر عاما من ذلك..

- لماذا تخبئين هذّه الأساور يا تمام أبرهه ؟

اختنقت الأثيوبية ، ثرثر جلدها بعرق كثيف . احتاجت إلى دمعتين مُرتين ، وعدة دفعات من القشعريرة قبل أن تتماسك كأُم.....

- لك ولإخوانك حتى تكبروا .

- كبرنا وانتهى الأمر .

جلدها الصوت ، وامتدت يد الكيان الجديد إلى الثروة ، مسح عنها عطر العناية القديم ، وعطرها بعطره الخاص .

-٢-

صباح أحد الأيام جلست (تماضر إدريس) على مائدة البكاء الغنيّة تكتب خطابا إلى أخيها (إسماعيل) الذي ماتت أُخُوّته وأخباره منذ أكثر من إثنى عشر عاما ، بعد أن خرج من البلدة ولم يعد .

كان في الثالثة عشرة من عمره عندما علق بفرقة (بلابل النيل) الموسيقية والتي عرقت في البلدة كجزء من مخطط استثماري وضعته جماعة (.أعرف بلادك) ونفذته بمعاونة ريفيين تمدنت أخلاقهم منذ عهد ، وحصدت من خلفه أموالا ريفية كانت تبكى وهى تخرج من جيوب التعب .

إتقد الغلام حين صافحت عيناه قمصان (التوتل) المشجّرة ، وسراويل (الكوردروى) المقلّمة ،وأحذية (الكموش) ، وتصاميم الشعر المتبلة بالنارجيل والخروع ، وعباد الشمس . وحين صرخت آلات النفخ صراخها الإبليسي ، لم يبق في وعى الغلام وعيٌ يكمل به أخوّته لأخته ، تفّه ضفائرها وفتياتها القطنيات ، وأكلها للطين من حقول الدلتا ،واندس في عرق الفرقة وأغنياتها وتعفرتها ، وطريقة تأخر أفرادها في النهوض من النوم . في البدء ردموا على إعجابه آلاتهم وحزمهم لتلميعها ، ثم كلّفوه بطقطقة ظهورهم ، وتوزيع أقراص (الأسبرين) عليهم عند اللزوم ،وعندما سمعوه يبكي وهو يصارع ألحانهم المفتولة العضلات ، أيقنوا أن الغلام صاحب العينين التعستين ، والجسد النحيل ، ماهو إلا مغنٍ رذيل لا ينقصه سوى احتلام حنجرته ، وتكبير شاربه ، وتشردِ أُسرى ، فأخذوه معهم .

ومنذ تلك الأيام اختفي (إسماعيل إدريس) ، اختفي حتى طوّرت الأقاويل البيئية اختفاءه فأعلنت إنه لم يكن أبدا ، نسيته أواصر الدم الإدريساوي ، وسراويل (الدمور) وصنادل (التموت تخليه)التي كان يدّخرها لمستقبله كمراهق في (توجار) ، وحتى بعد أن ماتت فرقة (بلابل النيل) الموسيقية ، وتيتمت ألحانها ، لم يعد أبدا .

– أخي العزيز إسماعيلو ....

– أخي العزيز سمّوعة ....

وبكت .

خطّت الدموع ثلاثة أسطر لا تعني شيئا ونضبت .

في المدرسة الابتدائية كانت (عواطف المجذوب) تقول لدروس الجغرافيا ... إن تماضر إدريس لن تعرف أبدا كيف ينبع النيل ، من أين يلتقط روافده ، وأين يبكي بتفرعاته ، كانت تخشى أن تستخدم ألوان الرسم الخشبية في تطريز وجهها ، وأحماض العلوم المدرسية في تزييت بشرتها ، وقد جاهدت لتحفيظها (المعوزات) و(آية الكرسي) ، و(ألهاكم التكاثر) وقضت عشر سنوات أكاديميات حتى استطاعت إنهاك تثاؤبها المستمر طيلة دروس النحو والصرف .

تماضر إدريس لن تصلح إلا عاشقة ومعشوقة .

هكذا كتبت المعلمة الأولى والأخيرة في البلدة رسالتها إلى (كيوبيد) بجهول . وحذفت التلقي الباهت لتلميذتها الجميلة من حطب التعليم المستعر .وفي حوار في جريدة حائطية ابتدائية ، كان قد أجرته معها بجموعة من الخطاءات إملائيا ، بأوراق خشنة وأقلام من الرصاص ، مدفوعات بتميزها المشع ، قالت (تماضر إدريس) ... إنها تعشق أحلام اليقظة ، والتدبير المنزلي ، وتجيد صناعة (المربى) من القرع والبطيخ ، لكن أسواقا خيرية إقليمية لاحقة ، أثبتت حموضة مرباها ، وبيعت صناعتها المُرة لخيرين سكارى اشتروها لإضفاء لمسة ساحرة لمعاناتهم الفقيرة .

- أحبك يا تماضر إدريس .

ركّز الكيان الجديد (لإدريس سعيداي) على عينيها الشعلتين وهو ينبض .

نظرت إلى اتساخه الغريب ، إلى عينيه الذئبتين ، إلى جوع كافر وإلى عطش أشد كفرا ، في قلب هذا الولد تبصم النار ، من رئتيه تخب أنفاس الخطر ، تذكُر صِغره الذي كان عدوا لصغرها وصِغر الفتيات في البلدة الغبارية ، تذكر مراهقته التي كانت أشبه بمراهقة الحمير ، ففي الوقت الذي كان المراهقون يذوبون حياء وهم يلدون الغزل ، كان (إدريس سعيداي) يمشي على رءوس أصابعه ويضحك . سكناه في البيت الغرائزي أدّبته فأساءت تأديبه ، وفي اليوم الذي انشقت فيه النافذة البدينة ، وحرّك لعاب القبائل ، حلمت به عشرات الصبايا المُغانثات ، وعندما

قلن لوساداهن .... صباح الخير يا إدريس .. أصبن بالفزع ، فاجأ بعضهن الـــدم، وأصيـــب بعضهن بخرس الغراميات...لن تحبه أبدا .. لن تحبه أبدا ...

كانت في الثامنة عشرة . خطت إليها بنفس رونقها الذي خطت به إلى السابعة عشـــرة ، فقط كان جسدها أشد خطرا على الثياب ، ووجهها محقودا عليه بقليل من (حب الشباب) ، مات أبواها وهي في الرابعة متأثرين (بجنون المحاصيل) الذي حصد مئـــات الأرواح في تلـــك الفترة في (توجار) ، حدث ذلك عندما تقيحت الدلتا بلا سبب ، نبتت نباتات (الســـنمكا) في ثياب الدخن ، تحدث (العُشَر) بصوت البطيخ ، وأصبح لقصب السُكّر بصاقا مـــرا قضـــى على سمعته تماما .

قيل أن كائنات غريبة تبرزت في نهر المبروك .

قيل أن دولا عظمى اغتاظت من صحة الدلتا وفتوتها وعفوالها فحشتها بالجراثيم ... لكـــن المرض لم يعش سوى موسم واحد اندحر بعدها إلى الأبد .ومن نخوة البيت العمودى للعمـــــدة إدريس إدريساي ، إلى نخوة البيت الديني للإمام إدريس أحمد ، إلى النخوات المتفاوتة لبيـــوت الأدارسة أجمعين ، ولول يُتمها سنينا وأسكته جمالها عندما نضج .

هبطت من اتساخه وتسلقته مرة أخرى ، لن تحبه أبدا ... لن أحبك أبدا .. اذهـــب عـــن وجهى يا إدريس تمام .

شحنة الوسخ الأقاويلى الموثق بالشحم واللحم لخمسة عيال ، قفزت من وعاء الســـحر ، لم يبدُ على الكيان أنه خُدش ، وحتى حكة الجلد التي أحس بها تزحف على ظهره كـــــانت مـــن حشرة ضارة لا من لسان جميل . إنتبه إلى أنه في معركة ، سحب أصابعه الحاكة مـــن صـــراخ الظهر ، ثبت بها مشطه المسكيت على شعره الخشن ، وخضّب روحه بفكاهة الجنرالات وهـــم يعدّون لحصار أُمّة ، كانت ابتسامته المنتقاة من أحد عشر نموذج ابتسامى تدرب عليها من قبـــل ، ساطعة ومدهشة ....

- خذي هذه الهدية كعربون للحب .

سلّمها اساور الفراق الأربعة بعد سبعة وعشرين عاما من اعتزالها اللحظات الحرجة، كانت لا تزال شهية بنفس رونقها الذي رقصت به في فوضى (أديس) ، أكثر من ذلك بدت متلهفة للقفز على معصمي الجميلة وتطويقهما ، لكنها أُحرجت في تلك اللحظة ، تعثرت وسقطت على الأرض .

طاردها الكيان في ذلك الصباح بصبر مفتوح الشهية ما لبث شهيته أن بدأت تذوب عندما نضج الصباح ظهرا . وبنفس سبارس العشق التي دخّنها الملايين على مر الغراميات ، شبّه وجهها بالقمر ، وشعرها بالليل ، ومشيتها بالسحابة ، وحديثها بالدُر المنثور ، تسلّق أمام ناظريها الرمل ، والجحوش الوعرة ، وشراسات الإبل ، وجاء بقطيع من الصبية ناحلي الأجساد والأحلام ، صارعهم ناحلاً.. ناحلاً وهزمهم . كان محتالا عندما أطعم سربا من طيور (القيردون) . كذّابا حين قال انه ظل يطعمها منذ عهد بعيد . وفي بيته الذي طُهِّر حديثا وقسرا كلم نفسه مرارا وبكى ... تماضر إدريس هي المرأة مثلما كانت (فتاة الزاندي) ، والمحبوبة التي أيقظ الثوار أحلامها . لم يكن في جهامة (ألبيرت) ولا ثورة الثوار ، لكنه يملك من الفوضى ما يكفي لإغواء عشرين يتيمة على شاكلة تماضر إدريس.

أكلته المفضّلة كانت طبيخ القرع بالكمون ... استبدلها بلا شئ.

مستقيمه كان معتادا على التحدث في الظهر .. أخرسه بلا رحمة.

وفي قمة العجز الذي يمسك بالخصية حين تأكلها الدوالي ، نادى إخوانه الأربعة ، انتزعهم من صعوبة تكيفهم بالعيش شرفاء في بيت شريف ، سألهم بأكثر من الخيبة التي تسأل بها المراهقات مراياهن المراهقة .....

- من هو أفضل رجل تعرفونه ؟

رددوا نفس الكلام الذي كان يمكن أن تردده نملة توجارية لو أنها سئلت في ذلــك الحــين ....

– ألبيرت بشاى الإغاثى .

-٣-

في البيت التوجاري العكر (لعبد الرحمن حليمو) وفي خزانة دافئة من خشب المســكيت ، كانت ترقد منذ سبعة عشر عاما معززة مكرّمة ، النسخة الوحيدة التي دخلت توجار من كتاب (رسائل الحب العصرية) ، أدخلتها التوجارية عواطف المجذوب ضمن ما أدخلت من الذهول ، والسرحان ، والكم الهائل لثقافة العصر الذهبي لأحلامها ، وبرغم الصراخــات والرضاعــات، والإبادة الجماعية التي حدثت لذلك العصر ، إلا أنها لم تنس تلك النسخة ، كانت توقظها مــن

حين لآخر ، تنتقي من توتر أنفاسها نفسا ملائكيا ، من مكحلة حروفها كحلا غامضا ، تمشي في البيت ساعات بمشية آخر الليل في يقظة العاشقين ، وتضم إليها بالتياع الصفحات الأخيرة ، ما تبقى من رحلها المنهك وهو يحصي إيرادات شواء الزراف .

تلك الظهيرة تلاشت (رسائل الحب العصرية) .افتقدتها التوجارية حين خطر لها استخدامها في جلاء غموض المراهقات وضبط نظراتهن حين تومض في عتمة دروس النحو .

في البدء حام توترها حول (حليمو) نفسه ، ظنت أن مشيئة اللورد المنهزمة في نفسه قد انتصرت من جديد ، راقبت قيلولته حتى استقرت على شخير العظام التعبة ونصبت له كمينا خيريا في حوش البيت ضج بالمهملات ، وثياب العيال ، وعدة قوارير من مربى القرع والبطيخ ، وملّيّنات النعناع ،طبختها على عجل.

وعندما استيقظ نادته ....

– من أجل أطفال توجار يا لورد .

توقف حليموعن مضغ مسواكه (الأراك) ، تقهقر إلى الوراء عاما وعامين ثم جمد ، تذكر إحدى المقولات الشبقية للجد (ميخا) أهداها إليه الثرثرة خصيصا كي يضعها حلقة على أذنه...

(النساء كالرأس الأصلع ... كلما دهنته كلما اتسخت يداك ، وإذا تركته بلا دهن .. عشت نظيفا) .

وانطلاقا من هذه المقولة التي احتاج حليمو في فهمها الى دهن رأسه الأصلع شخصيا بزيوت الطعام ، والسمن البلدي ، وعشرات العصارات التي سوّقتها لهفة الجلود العقيمة لاحتضان الشعر، تساءل ...تساءل بنسيان اعترته التوجارية أقسى وأتفه نسيان تصادفه في حياتها ...

– أي لورد تعنين ؟

انهارت وجلست تبكي آخر ما كان يربط عمرها الذهبي بعمرها القصديري التعس .

كانت للعمدة (إدريس إدريساي) عصا فارهة من (التيك) الجنـوبي ، اقتنصـها أيـام اضطهاد العصي الذي أعقب تصالحات القبائل في طول الوطن وعرضه ، جلس زارعو السـلاح المؤلم جنبا إلى جنب مع آكليه ، ووقعوا ميثاق إبادة العصي بلا رجعة . وعندمـا أُريـق ذات الميثاق بعد عدة أيام من ذلك ، كانت آلاف العصي قد فرّت إلى بيوت الحضر لتعمل خدمـا في تلك البيوت ، كانت تبعد سلال الخبز عن عبث القطط ، وتسهم في هـش الطيـور وإعـادة الدجاج إلى حظائره ، وتتبع أسيادها إلى مناسبات الفرح ، والمـوت ، والصلـوات ، مؤدبـة وخجولة ، وكان أقصى إيلام تقترفه هو لكز زوجة خامدة في شتاء مُلحٍّ ، أو تربية حمار مغـرور في بلدة مثل توجار . وبمرور الوقت استعاد معظمها هيبته المشاكسة وعاد إلى سابق عهده .

تلك الظهيرة بالذات ... فرّت خادم العمدة المطيعة من بيته .

أقبل الليل برضائه وغضبه ، بصولجانه المسروق من أ سْود الحزن والرهبة ، ابتدأت رعشـة الفوانيس ، وحموضة العجين ، واتكاءات الجروح التعِبة على الرضاء والغضب ، حـل ببطـن إعصار مفاجئ ، برئة سعال محنَّط طيلة نهار التعب ، بأحلام مؤودة صحوٌ هسـتيري ، قـالت الرغبات ... هيا .. قالت الرغبات.. لبيك ، أذّن ديك عبيط ، ونبح كلب حر ، وحلب صمـغ الثرثرة مئات الأطباق من لحم الزراف ......

– صدقوني .. ألبيرت بشاى ليس ساحرا ، نحن أناس اعترفنا بمهارة الجوع ، وحاولنـا مسايسته ، انتصر علينا كثيرا ... وانتصرنا عليه أكثر .. في الغـرب خضنـا في ميـاه (الفولات) الضحلة ، شممنا عفونة الفقر ، ومسحنا الدموع الوطنية . في الاستوائية حملنـا الإغاثة على ظهورنا ، وعبرنا بها الألغام ، حتى الألغام كانت تحترمنا ... فتنتظر عبورنـا ثم تنفجر .. كانت (سوشيلا) تبكي كثيرا ... ستقتل نفسك يا حبيبي .. فأقول ... حتى ولـو

... وعندما أغرق في النوم من شدة التعب ، يأتيني (الجد ميخا) ، يسألني بقسوة ... هـــل نام كل التعساء في العالم دون أن تصرخ بطونهم ؟

أقول ... لا ...

فيقول ... أنت إذن خارج مِلّة يسوع .

ثم يضربني بعصاه حتى أصحو من النوم فزِعا . خذوا الحكمة من الجد ميخا ....

(إذا صاح كلب هو ... هو ... هو دون أن يكون هناك لص، إذن لاستحق صاحبــــه الموت) .

اقشعر سماع الجلساء من حكمة الجد ميخا ، تخيّلوا مسبحته (اللالوب) ومسيده المبخّــر (بالقرض) و (التيمان) ، وأتباعه الذين يقومون ويقعدون على ذِكر الحي القيوم ، لابد أنــه (ختميٌّ) في مهابة (تاج السر) و (راجِل كسلا) وأشراف النسب الذين سمعت بهم القبــائل سماعا .لابد أنه قطع البحر دون أن يبتل نعله،وسخط منافقا إلى قرد . حاول بعضهم أن يســأل لكنه استحى، ولعن بعضهم كلابه الخليعة وهي تنبح بسبب وبلا سبب، ومن خلــف مواقــده المحشوّة بالرزق والعافية ، ابتسم (حليمو) ابتسامة عاصمي قديم .. أكل (الإيتاب) دموعــه ودماءه لكنه أخفق في أكل نظراته الوغدة .

تقدم الليل خطوات وخطوات . انطفأت رعشة الفوانيس ، ووصلت حموضة العجــين في تسلقها الخلايا حتى وصلت إلى مشارف الكبد ، أخفق (النعناع) في إلهاء البطن ، و(القرض) في زحزحة السعال ، نزّ الصحو الهستيري عرقا ... قالت الرغبات شكرا .. قــالت الرغبــات عفوا، اكتشف الديك عبطه ، والكلب الحر لم يجد مصبًا لنباحه فسكت .

(كان حليما حتى مع النمل والصراصير .. إذا نظر أحدهم في وجــه أخيــه بتكــبر واحتقار، سد عيني الأخ بعصاه حتى تسقط النظرة في وجه بلا عينين ... وإذا بصق آخــر في

وجه خصمه. انتزع البصقة وأعادها إلى وجه صاحبها قائلا .... أنت الآن بصقت على نفسك .... فيبكي الحاضرون ... رحم الله الجد ميخا.. رحم الله الجد ميخا)

الدروب الضيقة في توجار ، ضيقة بحق ، لدرجة أن غبار (الإيتاب) كان يبدوا مهموما ضيق الصدر ، حين يمشي فيها مؤديا لمهمته التلوثية .. لدرجة أن العرق المتقاطر من جسد الأقاويل البيئية كان يُشم بسهولة حتى بالنسبة لمرضى (الأنوزميا) و(اللحميات) وأقصى درجات البله وثقالة الدم . في عهد القرن الجد عندما أسس (الحاوي) توجار ، كان (الإيتاب) يافعا وقويا ، يعدوا بكفاءة تتمزق لها الحوائط ، كانت الأقاويل البيئية طفلة تعرق بعرق ملائكي، وبمرور الزمن بردت شهوة الإيتاب ، كبرت الأقاويل البيئية ، وتعلمت تلك الدروب كيف تضحك بخلاعة ، وتبكي بترف ، تصنع من أمونيا التبولات المتكررة سمادا لكل شئ ، ومن عرق الأقاويل شايا وقهوة وعصاير . وريالة أشد نزقا من ريالة (التمباك) ، تلك الليلة حدث كل شئ بجدارة ،حلمت البيوت بقبةٍ من حجر لا يشبهه حجر ، برمل ضريحي عذب يُنثر على الأدران فيميتها ، ويُمزج بماء الوضوء فيزيده طهورا ... رددت الأحلام كلها .....

- بركاتك ياجد ميخا ....

- بركاتك ياجد ميخا .

كان الإمام (إدريس أحمد) غائبا في قرية (عدارات) ، كان يؤدى صلاة الجنازة على روح واحد من أرقى ضحايا الحرب ... عبد الصمد عبد الصمد ، قائد الجيش العداراتي . والذي مات من جراء كذبة محلية عن سحب أوسمة القصدير من جيشه ، واستبدالها بأوسمة من الذهب . جمّع جيشه بمشقة البصر المقضوم ، والصوت المتقدم في العمر ، قال .. شكرا ... وذهب.

كلّمت الإمام أقاويل متقطعة الأنفاس جاءت عذبا ، ارتدى سماعياته الأزهرية ، وعـــاد ، وبتدين هامس إلى أقصى حد ، ألغى عادة الأحلام الغربية التي كـــادت تُضـــاف إلى عـــاداته توجار،لكنه لم يستطع إلغاء قرش واحد من إيرادات شواء الزراف .

- إدريس سعيداي عمدة .

- إدريس سعيداي جنّ .

- إدريس سعيداي يبكي .

- إدريس سعيداي سيفسد الليل .

همست جلسة مقرفصة ، لجلسة مشدوهة ، لجلسة عشوائية ، لمواقـــد الفحـــم في المطعـــم المفخخ. التقطته الثرثرة في آخر مقاعد الليل ، كان يرتدي زيّـــا عجـــوزا أقســـمت دوائـــره وتضاريسه وخطوطه المتعرجة ... إنه من نسى (كنعان) ، على يده اليمنى عصا فارهة مـــن (التيك) الجنوبي ، ومن عينيه تخب الدموع مختلطة بمائة وخمسين رسالة هامسة وصارخة .. دافئة ومثلجة.. عرجاء ومجنونة وممرغة في التراب . قرأها (حليمو) بحكمة العمر الخمسيني فلم يفـهم شيئا ... حاكى (سرور ود طاهر) إحدى صفحاتها الحالمة ثم توقف قبل أن تتســـخ ســـكرته . كانوا يدفنون (الجد ميخا) عندما انقطعت الثرثرة ، ومن حافة القبر المحاصر بزهور القرنفـــل ، ونقاء العطور ، وحفيف الثياب ، وبركة يسوع، نهض ألبيرت بشاى ، كان في وجهه فخ جامد ، كلتا أذنيه ترتعشان ، وقد اختلطت في ذهنه مراسم الدفن ، ببكاء سوشيلا ، بعرق (الفولات) بصرخة أفريقية سمعها في مكان ما. اقترب من الكيان ، دغدغ بطنه بأصابع ليس فيها حـــرص اليوم الأول، ولا ثقافته ولا توجسه .....

- عندي لك مهدئات خاصة .

ثم ضحك فتساقطت ريالة (التمباك) .

خرجا من حقل الثرثرة متبوعين بالجلسة كلّها .

كانت واحدة من أتفه ليالى الريف ،القمر فيها كسلان ، السماء أشبه بزنجي أبرص ، مورست التفاهة في بيت العمدة (إدريس إدريساي) حيث لُكِزت امرأتان فاخرتان بعصا مالحة من جذوع المسكيت ، في المطعم المفخخ حيث استعان حليمو بمغامرين سكارى ، لموا شتات الجلساء ـــ غرسوهم في المقاعد عنوة ، أطعموهم ما تبقى من الشواء واحتلبوا من جيوبهم الربح ، مورست التفاهة في الدروب الضيقة ، بين جلباب وفستان ، وحذاء ضيق ، وحذاء عريض ، تحت الحوائط ، وفوق اسطح البيوت ، وأقفاص الدجاج وحظائر الماشية ، نزت حتى حراس الحدود اليابسين ، شربوها بوعورة ، أطفأوا آخر نار لصرامة الوظائف ، وأوقدوا نارا من لهب مقامر وسكران ، لعبوا قمار (السيجا) حتى خسر قائدهم نجمة ووساما ، ووجها جامدا ، وجرحا حربيا قديما ، لتئول جميعها إلى جندى وضيع . تتافه عدة مثقفين ليليين ، شموا مكابدات (الكيان) الخاصة ، وطرقوا على باب الإثيوبية بعد ستة أشهر من موت المُغريلت ، مارست معهم تفاهة الشرف الستة أشهرى ، خرجت إليهم (مبصّلة) ومبهّرة ومطبخية الشكل ، راجعوا ثقافتهم سريعا واعتذروا .

عند (التالاب) كانت التفاهة تافهة ، احتفلوا باليوم المحلى للشر بعرضة الدم ، وعرقى السمك ، وتخويف ضروع الإبل بنمل(الشحاميط) ، حتى تبتلع اللبن مرة أخرى ، صوّتوا ضد الماء والقطن الطويل التيلة ، ونوم القيلولة ، وتجمعوا عند باب (الكريكابية) مطالبين بحقهم بالتمتع بواحد من أبرز إنجازات الزعيم .

وفي البيت التوجاري العكِر (لألبيرت بشاى) ، انتقت جرذان المحاصيل حذاءين إيطاليين مهملين ، أكلتهما بشراهة ، وتذوقت إحدى المقولات الهامة للحد (ميخا) وتركتها . لم يكن بالإمكان تهدئة الكيان ، وأصبح الوعد الذي وعدته الثرثرة بجرد وعد لا أقل ولا أكثر , كان جنونه مبتذلا ، بمواصفات خشنة وأخلاق في الحضيض ، نزع قميصه الكنعاني ، ربطه في وسطه، ورقص رقصة (الجِن الكلكى)التي قررها التالاب مرة على أعياد توجار ، وأماسيها

الفرائحية ، ثم عادوا وألغوها بعد مفاوضات شرسة استبسلت فيها البلدة الغبارية ، وخرج منها الزعيم (أوكير) بجمل ونعجة ، وقصائد مرتعشة مدحه بها الشعراء . كانت تتلخص في نتف الشعر ، وتقليب العيون ، ورج الجسد حتى يذوب وختق رجُلٍ في السقوط الأخير . مارسها الكيان بطزاجة غريبة ، أضاف إليها سعالا متقطعا ، ومغصا كلويا ، وهب على رقبة الإغاثي ثم سقط ، قام سقطته ، قلّد شخير الحيّة، وبكاء المطلّقات ، والزوج المخدوع والزوجة العفريتة ، والفتيات الصغيرات حين يتبعهن كلب . وصف (تماضر إدريس)التي يعرفها ، والتي يتخيلها ،التي يموت من أجلها ، والتي يميتها من أجله .... قال ...

- هي قمر .

- هي فأر .

- هي ضبع .

- هي ملاك .

- هي حبيبتي .

أمسكه الإغاثي بمشقة شديدة ، قيده إلى إحدى ركائز البيت ، صب عليه الماء المخلوط بالحنظل ، وغرغره بغرغرة المسكيت، وأذِن لإحدى القطط الليلية بلحس شاربه حديث الولادة ... قال له.... قل ياحد ميخا ...

قال .... هو .. هو .. هو .. أنا كلبك ، وأنت تستحق الموت.

خلال طوافه الوعر والكثيف ، ابتلى الإغاثي بست جنّيات لستة مجانين ، كان آخرهم (ضرار الإدريسلوي) ، كانوا يختلفون في موهبة الجنون ، وطريقة توظيفه إجتماعيا ، وكانوا وهم في أشد لحظات التعاسة وفقر العقل لا ينسون طرقعة أصابعهم ، وأكل الوجبات كاملة ، والتزود بالماء مخافة أن تتعطل الكِلى ، لكنه لم يرْ أبدا جنونا بهذا القبح ، لابد أنها حورية فرّت من حور المتقين.... هكذا فكر ، قدّر طولها بمائة وسبعين سنتيمترا ، ووزنها بخمسة وستين

كيلوجراما ، وتحمل في وجهها عينين شعلتين ، ودموعا من ذهب .ولو صحّت توقعاته فــهي من مواليد برج (العقرب) تلسع بفن ، وتنام عميقا كلّما حنّ أحد من أجلها .

كلّمته الأقاويل المستقاة من التاريخ العجوز عن (عشمانة الهيلبابية) عن فخامتها الفخمة ، وصوتها العسلي ، وضريبة التوحم التي كانت الحوامل تستخرجها طواعية من أجـــل فتيــات يشبهنها..

- تلك كانت من برج الفيروز الذي لن يكتشفه الفلكيون أبدا .

قال الإغاثي في نفسه ، أطلق جنون الكيان ، وحمله إلى بيته.

الصباح التوجاري يبدوا دائخا ، تتنفسه الكائنات شعاعا ... شعاعا، وعندما يكتمل رونقـه تماما يسقط من شدة التعب . في زمن المحاصيل ، ورضا نمر (المبروك) ، ما أحلى دوخانـه ، في زمن المجاعات والحروب القبلية ، يتأزم بشدة ، تمرسه الصراخات الطفلة ، والأمومات الجافــة ، وعطالات التجار والمزارعين وهي تعمل في بيع العصى والفِتن ، وتشييد معابر للأقاويل . ألقــى الإغاثي بدوخانه الشخصي في دوخان الصباح ، ذكريات الليلة لا زالت تغنى ، وبقعتان مــــن الدم تبسمتا في عنقه من أثر رقصة (الكيان) ، علاقته بالنساء انهزمت منذ عهد بعيــد، كــان يتغنى بهن كحلويات تطعم ثرثرته الليلية ، وعندما يأكل من ذكرياته وحيدا لا يتذوق للحلويات طعما ، وحتى (سوشيلاـــ فتاة الزاندي) فينوس الثرثرة في مطعم (حليمو) كانت مجرد فتــلة جنوبية بأشواك غابة ، وقوام أرنب ، طلبت منه ذات يوم قبلة بيضاء وأعطاها ، وعندما أسـرف في البحث عنها بعد ذلك طمعا في مضاعفة قبلته ، ضحكت غراميا (الإستوائية) من ذوقـــه ، قهقه دونجواناتها العراة على طويل عريض ، ومتمدن لا يعرف أين يلعب . عرضت عليه الأجواء المُغاثة هناك بدائل أرقى واعذب ، فأبى ـــ وفي اليوم الذي نجح إسرافه الباحث في العثور علـــى سوشيلا ، وضعت ساقا على ساق، مدّت لسانها ، وشتمت أمّه بطريقة تُجار الشمال الذيـــــن كانت آثارهم مقروءة على كل شبر من جسدها .

للسوق التوجاري حموضة العجين ، كانت التجارة خرساء في معظم الأحوال ، يستبدل الخروف بالنعجة ، وجمل السباق بجملين أكولين ، والحمار الأعور بجحش حديث الولادة ، وعندما كانت تتحدث تلك التجارة ، كان حديثها مقتضبا يقتصر على جُمل الضروريات وتوابل السعادة الزوجية ، فيما مضى حاول بعض الأدارسة العاصميين إنعاشها ، قدموا إلى البلدة محمّلين بالكذب الرأسمالي ، وطلاقات الضرورة ، وهلاويس الربح المركّب ، وآلات حاسبة جياشة العواطف تبكي بحرقة كلما خرج قرش و لم يعد . علّموا الحمير تبادل القبل ، وباعوها كمشاريع منتجة للجحوش ، علموا الدخن عادة التخزن والخروج مستترا ، علموا الديوك إطالة الرغبة ، وحقنوا الدجاج بهرمونات القلق ، فصار ينتج كفقّاسة يابانية .وفي إحدى المرّات زوّجوا عصير (الريحان)الذي جلبوه معهم بعد أن طالت عنوسته في العاصمة ، للبلدة كلّها ـ قالوا ابتكره الشيخ (ريحان) ،ووزعه على أتباعه المبثوثين في طول الأرض وعرضها ، فلم يبق واحد منهم إلا حجّ واستغفر ، وقُبل استغفاره . وعندما اكتشفت البلدة خيبة الريحان ، وعاتبتهم بمرارة ، أخرجوا وثائق عالمية تثبت أن (كذبة أبريل) حق مشروع ما دامت لن تميت أحدا . وبعد سنوات طويلة كان هؤلاء الأدارسة قد شبعوا ، فاستخسروا شبعهم على الريف ، أوقفوا إنعاشهم وعادوا إلى العاصمة ليتجشأوا هناك .وعندما انشقت النافذة البدينة ، وافتُتِحت صوالين التزيين الإغاثية ، عاد بعضهم كمزينين ومصففين ، وخبراء في التهجير والتوطين ، وإسكان أعرق الأُسر العالمية على الشبع الإغاثي .

في قلب سوق الضروريات جلست (سعدية شاشاي) امرأة الأقاويل الأولى وبائعة العجين الأكثر حموضة ، كانت في الثالثة والسبعين ، ساقها اليمنى تخلطت منذ عام ، وكسر لسانها الأقاويلي حتى صار يرطن منحنيا ، في سنواته الاستيطانية الخمسة كان الإغاثي يصادفها كثيرا ، وكانت في كل مرة تنهكه بعينيها الثعلبيتين ثم تمضي بعيدا ، وعندما تخلطت ساقها اليمنى حشر ثرثرته في خصومة عمقها ثلاثة واربعين عاما ، قال للكريكاب..... أعيدوها إلى دمكم ، ربما

نفع وجهها العجوز في تنويم طفل قلق ، فكروا في قوله كثير واعتذروا ... كانت إعادتها إلى الدم الكريكابي تعد إحراجا لرقدة الزعيم (عوّاض) الذي أطلق مثلا باكيا ومات .....

(إن دودة القطن تنتمي لديدان القطن) .

التقطته الكريكابية بسهولة شديدة ، كانت عيناه تمسدان ظهر السوق وبطنه وركبتيه ، اشارت إليه فاقترب ،نظرت إلى ابتسامة الرقصة المجنونة على عنقه ، مالت على بائعة العجين الجارة ، حفرت في أذنها شيئا ثم التفتت إليه ...

– تماضر إدريس لا تأتي إلى هنا أبدا .. إنها في بيت الإمام إدريس .

وقبل أن يبرح الإغاثي موضعه ، كان وفد من أرفع رجال القبائل قد شُكّل بصرامة ، أُرفق بجمل ونعجة وعدة قصائد مرتعشة ، وأرسل إلى الزعيم (أوكير) حاملا توسلات البلدة بإلغاء رقصة (الجن الكلكي) .

–٤–

عندما وُلِدت توجار وولدت أحياؤها ، لم تكن الملامح واحدة برغم نطف الطين والحصى والرمال ،التي نُسجت من نفس خلايا البيئة ، وقذِفت في رحم العراء بنفس الشهوة والإرادة .

كان بعض الأحياء وسيما للغاية ، بعضها مقروء الدمامة ، وبعضها لم يكن يملك ملامح على الإطلاق .وقد بُعثرت القبائل في وسامة الأحياء ودمامتها وانعدامها ، بتقديرات معقدة وتنبؤات مستقبلية ، وحاضر استلفه (الحاوي) من البيئة والطباع وفيما بعد عندما شاخت البلدة ، وتساقطت أسنان البيوت وأجسادها ومات بعضها بالفعل ، كان صعبا تمييز ملمح من ملمح ، وفي وقت ما ، وقبل أن تمتد إليه شهوة الترميم ، صار حي (الأدارسة) الأوجه عندما وُلدت الأحياء ، أخا توأما لحي (الدخوليين) ذي النكهة الصعلوكة والتواضع الجم ، وطبيعة (الشيزوفرنيا) ، وتعانق حيا (الهيلباب) و (الكريكاب) بحوائط مرتخية ، حتى كان سكارى القبيلتين ينامون حيارى ومشوشين في الطريق العام ، وقد أخفقوا في العثور على أسِرّتهم وحريمهم في وسط ذلك التعانق .

كانت ثقافة (الحاوي) بلا حدود ، وقدومه من أماكن مبهمة وغامضة ، إضافة إلى (ضريبة الثأر)التي طالبته بها القبائل عند قدومه ، وأتقن تأديتها ، كل ذلك جعل من استفزازه للقبائل وجبات طاعمة ومملحة . كانت إشارته الخشنة لزعماء الشر (التالابيين) كافية لجعلهم يطشون بأطراف البلدة غارسين لبيوت أشبه بخناجر من طين ، كانت حوائطها مكشرة ، أسقفها مسننة ، وقد أُحيطت بالحفر ، ولوازم المجون من دجاج وإبل ونعاج ، ومسكيت مرتعش ، (الهيلباب) و(الكريكاب) كانتا قبيلتين مسقوفتين بحسب ونسب ، وقيافة في الحكي والطنبرة ونساء كالتوابل ، قُرِّب حياهما من حي الأدارسة الذي كان في البداية حي الحاوي، تسكنه زعامته ، وعروسه الهيلبابية ، وعياله العُمد القادمون ، ثم قبيلته التي تكونت وانشرّت على مدى قرنين من الزمان .

قبائل العمش والدخوليين ، والشنكت والتكارنة ، كانت قبائل ذات عورات يعرفها الكلب وماشي الدرب ، غرست بيوتها كأنها تغرس بصاقا ، فبدت هشة ملساء وفاجرة ، بعيون من الصفيح ، وخدود من الحصى المطحون .

كان النهار جديدا على المنطقة ، النهار الأول (لتوجار) الشـــذى والتناقضـــات ، وهـــى مبهرجة في كامل تأنقها ، عندما أصيبت بمغص حاد ، ارتفع بكاء قبلي لستين رجل ، وثمـــانين امرأة ، ومائة وعشرين طفلا بين رضيع ومتراضع ومقلّد للكبار، فقد ضغط العشـــق الرحيلـــى لقبيلة (الجرابيع) على عواطفها ومصارينها بشدة ، بكت وظلت تبكى لمائة عـــام ، ينتقـــل البكاء من أب إلى إبن ، ومن ابن إلى حفيد ، حتى انتحرت جماعيا في ساحة الوسط التوجارية ، والتي تُركت جرداء في الأصل كمتنفس للرذالات عندما تختنق بها البيوت .

وقد استغربت القبائل بشدة عندما أشرف (الحاوي) بنفسه على بناء حي جربـــان مـــن مخلفات البيئة ، وجذوع المسكيت الميتة، طلاه بالفحم ، ودماء الذبائح ، وتركه بـــلا قبيلـــة . تشاور الكبراء فيما بينهم ، ثم تلملموا وذهبوا إليه ، كان مشغولا بوضع اللمســـات الأخـــيرة لسوق الضروريات ، وتدريب عدد من القبليين بعيون شرهة ، وأصابع حلابة على التجـارة ... أخذ منهم خمسة نعاج ، أوقفها خلف ظهره قليلا ، ثم ردها إليهم ستة ... قال ..

– هذا ربح .

أخذ النعاج الستة مرة أخرى ، أوقفها خلف ظهره ، ثم ردها خمسة ... قال ...

– هذه خسارة .

طلب كلابا غير صالحة للصيد والنباح ، جاءوه بها ، أخذها منهم ولم يعطهم شيئا ، قـــال ...

– هذه ديون قد أسددها وقد لا أسددها .

استوعب تلاميذ التجارة دروسه بشغف ، خرجوا من عنده وقد أثرت أخيلتـــهم ، ثـــراء فاحشا ، وبدءوا ينبشون البلدة الوليدة بحثا عن بائع أو مشترى .

التفت إلى كبراء القبائل ، حيا تكبرهم بتكبر أرقى قليلا ....

- نعم .. هذا الحي لقبائل الجن ، حتى لا تزاحمنا في بيوتنا.

وبالفعل ظلت البلدة لسنوات طويلة نظيفة من الجن وصرعاته، واحتكاكه بـــالآدميين ، إلى أن جنّ (هيلبابي) أعزب، وظل يكاكئ كدجاجة ، فعرفت القبائل إن حي المخلفات البيئيـــة لم يعد ملائما لقبائل الجن التي حصدت من التطور مثلما حصد الآدميون.

كان الإغاثي يعرف البلدة جيدا ، برغم سكناه في حي عكر بعيد أنشأته السلطة مؤخـــرا ، بذات المواصفات التوجارية ، وتركته كمصب للعابرين ، ومفتشي الضرائب ، والفرق الموسيقية المتاجرة في الريف ، ومحافظي الأقاليم الذين يمرون من حين لآخر اكتســـابا لنظـــرات الريـــف المنبهرة ، أو الإمتلاء من تعب الأعصاب والتقرب به إلى السلطة العاصمية ،وكـــانت زياراتـــه المتباعدة للعمدة (إدريس إدريساي) و الإمام (إدريس أحمد) ، والتي يقتطعها مـــــن وقـــت الثرثرة ، معروفة لدى الأقاويل وموثّقة ، ذلك اليوم نُسيت المعرفة ، وأُلغى التوثيق ، وعندمــــا طرق على باب الإمام (إدريس) انفتحت كل البيوت ، وبدأت الآذان تلتقط .

الفصل الثالث

-١-

بعينيها الشعلتين تسلقت جهامته ، وازدحمت بتراحماته ، مالت على أُذنه المرتعشة ، قبّلت رعشتها قليلا ... ثم فاضت ...

- هل تحبني حقا يا ألبيرت ؟

ابتسم منسق الإغاثة المحلى ابتسامته الفخ، ضيّق عينيه ووسعهما، ضيقهما ووسّعهما ، ولد آهة، وآهتين .. وعشرين ، حتى شبعت طفلة (زهور البرم) ، خلّصته من نوبة الخفقان بدمعة ، وغاصا معاً في بكاء النظرات .

حدث ذلك في الثلث الأول من قصة الحب ، على أرائك شفّافة نسجاها معا في عطش الغبار، تحت سمع القبائل وبصر السفاهات ، وهرجلة الأقاويل البيئية ، وعلى مرمى نظرة مشفقة من جنون (الكيان).

كان الإغاثي قد سقط فعلا ، سقط حتى كان يجى الثرثرة ويميتها واقفا ، يستعطفه الجلساء المختنقون باللقم المذدردة دون مضغ ، وتلهث مواقد الفحم والمَعِدات والعصارات ،والإمعاءات الدقيقة والغليظة ، لإنماء دورة الطعام في أقل زمن ممكن . ونتيجة لذلك التهور الذي برطم في المطعم المفخخ ، انتشر بلل المقاعد ، وتحولت الروائح الفسيولوجية ، مما اضطر (حليمو) إلى حسم المسألة ، وإنشاء مرحاض ألحقه بمطعمه ضمانا للخلاص السريع.

وفي تلك الأيام استيقظت (فتاة الزاندي) من موت الرصاص، بصقت على نفسها مرارا وبكت ، ... آسفة يا حبيبي .. لقد خنتك كثيرا ... ثم حُملت إلى القبر في واحدة من معجزات الجنوب التي قالت الثرثرة .. إن كثيرا من أرامل العشاق حاولوا تكرارها وأخفقوا .. أيضا نمر الجد (ميخا) الجلساء ، قال غاضبا .....

(أقاويل البيئات سفاهة ... أقاويل البيئات قلّة للذوق والأدب.. ومروجوها يقتلون أنفسهم كل يوم) .

ثم اختفي من حقل الثرثرة إلى الأبد .

وفي البيوت ذات النخوة ، كان سقوط الجميلة شنيعا ، استلهمت مناجـاة عشـقها مـن عشرات الحكايات المربكة ،التي اخترعتها الجدات في أزمنة البساطة والتقوى ، ورممها سـكارى السنوات المتعاقبة بمعاونة الأقاويل ، حتى وصلت بسيطة وتقية لكنها مملـة،شـربتها الجميلـة وخطت بها إلى الثلث الأول من قصة الحب، سرحانها الصباحي أعطى مكواة الفحم العتيقـة في بيت العمدة فرصة عمرها ، أحرقت فستانين عاصميين لزوجتي العمدة وضحكت .اضطرابها في نوم الضحى والقيلولة وأواخر الليل ، أربك نوافل الإمام ، وجعلها تتخبط في السعي نحو المغفرة . ابتكاراتها الذاهلة في تسريح شعر الفتيات أخرج للدروب العامة تصاميم للشـعر مضحكـة ومبكية .وسؤالها المتكرر لحريم الأدارسة ... هل ظهر مغتاظ جديد ؟ ، جعل الكثرين يمسكون الغيظ حتى إذا ناموا خرج في سراويل أحلامهم .

وفي اللقاءات المغطاة بتلفزة الأقاويل ، وبثها المباشر ، كانت ترتـدي وجـه الكُحـل ، وشاعرية الشموع ، وتزين أصابعها بثلاثة خواتم فاروصية ، تنازل الإغاثي عن فكرته القديمـة التي استوحاها من جنون (الكيان) نزع عنها برج (العقرب) ، وألبسها برج (الحمل) بكل وداعته ومسكنته ، وطواويسه الغشيمة ، وعندما اكتشف حبّها للشطة والليمون ، ودسومات الحِلل الشقية، أهداها مسكنات رفيعة تحسبا لطوارئ منتصف الليل .

في البدء قالت العمودية لإدريس إدريساي .....انفجر .

فأهملها .

وعندما وصلت قصة الحب إلى منتصف ثلثها الأول ، وصارت أجولة القبلات والنظـرات تُعبأ من بقايا المواعيد ، وتُوزع على المراهقات في البلدة ، رفع عصاه (المسكيت) البديلـة ، أساء بها إلى جلسائه ، قال ...

– اليوم سأكنس غرباء المنطقة جميعا .... حتى لا يبقى في توجار دم إبن كلب . إن عيـني سرور ود طاهر لا تعجباني ، ومطعم حليمو يجعل جيبي يرتعش ، وألبيرت بشاى ....

وسكت . لكزته الواجهة المكحّلة لصالون التصفيف الإغاثي الذي افتتحه بعد اعتكاف دام أربع سنوات عجوز ، أرخى خادمه الجديدة وطلب مزيدا من القهوة .

وفي السرير الدين المطعم بقرارات إحدى ليالي الخميس ، كانت الفرصة سانحة لواحدة من أكثر نساء توجار حياء ومسكنة، انتظرت حتى اشتعل كل شئ ثم أمسكت بالنار ...

- ما رأيك مولانا الإمام ؟

- إنها نزوة ... صدقيني إنها نزوة .

همس الإمام ، ومضى قدما في توقيع قراراته الخميسية .

لا يعرف أحد على روح من أُديت صلاة الغائب ، هرجلت الأقاويل ... أدوا صلاة الغائب.. أدوا صلاة الغائب .. وأُديت . في ذات الساحة التعسة أورق الخشوع ، وتطهرت النجاسات ، وسقطت منْ عين الرطانة دمعات موحدة ومتناقضة ، الذين بكوا (كنعان العجوز) بكوه بلا مبرر ، الذين بكوا (شاشاي اليتيم) استندوا إلى ذكراه الثامنة والخمسين ، وعدة سرقات ضارة نشطت في ذلك اليوم ،وبعجرفتها التدريسية غاصت (عواطف المجذوب) في صدور الدمعات وغرست روح والدها الذي كان لابد أن يجد مخرجا للأزمة الآقسى من نوعها في تأزم البلدة الغبارية .

هو... هو... هو ... أنا كلب أليبرت ، وأليبرت يستحق الموت .

هو... هو ... هو... تمام أبرهة كلبة كنعان ، وكنعان يستحق الموت.

هو... هو ... هو ... توجار كلبة الحاوي ، والحاوي يستحق جهنم .

حكمة الجد المشوّهة ، أغنية الكيان التعسة ، الآن أبرز الملامح المجروحة في الثلث الأول من قصة الحب . كانت تتفصد في أى خد وبلا خد ، حصدها المزارعون في حقول الدلتا، وباعها التجار للمشترين ، وعثر عليها جامعوا القبلات والنظرات مخبأة في الأجولة ، وعندما امتدت

سطوتها إلى ترقيص العرايس ، وبهدلات الزار ، اضطر خبراء التراثيات في البلدة إلى تقييمـــها ، قالوا نختلف معها أشد الإختلاف لكننا نحترمها ، ولو لم تَقُل إن ألبيرت يستحق الموت ، لكانت من روائع الجن المُغَنّى .

في أحد الأيام حمل نزف الإغاثة الشهرى دمية من المطاط ، بعينين شعلتين ، وأنف أميرى ، وضفيرتين من ليل تخيله الصُناع فأسرفوا في التخيل ، قال الترف ... هذه لإدريس ســـعيداي . حملوها إليه كبشرى سارة ، وفي غرفتهاالتي حرصت الإثيوبية على بعثرتها بما يتـــلاءم وحيـــاة الجنون ، فرح الكيان بشدة ، طوّح بوعاء ممتلئ بحشرات (الكدندار) كان يدربها على الرقـص ، سمى الدمية تماضر إدريس ، ومارس ضدها العشق بدءاً من شرر العيـــون وحـــتى الهجـــر في المضاجع ، أجبرها على البكاء بدموع حمراء لوّن بها خديها ، والانحناء بقوامها المطاطي حـــتى تقبِّل قدميه ، وفي لحظات الرضاء القليلة كان يلبسها أســـاور الفـــراق الأربعـــة ، يضحـــك ويضحكها بشق فمها حتى حلمة الأذن .

قالت الأقاويل غير المؤدبة لتمام الإثيوبية عندما أصبح عجينها كالشوك ، تعافه الوجبـــات ، وتشتريه الشفقات لتطعمه للأرض.....

– عودي إلى سيرتك الأولى ، جرى الإغاثى إلى بيتك ، ربما تغـــيرت القصـــة ، وســـقط عصفوران بحجر . الإغاثى لك ، وتماضر إدريس لابنك المريض .

وأحيت لها الأقاويل عدة أمثلة وغدة وأدها التاريخ .ذلك اليوم حام حولها الأرق ، وحـــتى أغنية الكيان التعسةالتي كانت بمثابة لحن بيتى تنام على إيقاعه العائلة ، أخفقت في دحره ، وعلى مرآة مشققة لكنها صادقة ، طالعها وجهها وبصق عليها ، ومن سحن خشبي في بوار البيـــت خرجت كتيبة مجرمة من كتائب الحروب الغرائزية بجونلات وسخة وفساتين قليلـــة الـــذوق ، تنسمت الهواء قليلا ولامست الجسد التائب ، ثم عادت . قفزت زينة (العكش) المكسرة علـــى العنق وجرحته ، وترك عطر (الشاكوين) المعد على عجل ، بثورا على الجلد ، قـــال الجـــو المحيط أبدا ، وبكت الإثيوبية ، أسرعت إلى مطبخها ، تبصّلت وتبهرت ، وعاشـــت في الأرق

اليقظان ميتة لكنها أما ، وفي سوق الضروريات بصقت على الأقاويل ، وباعت عجين الشفقة حامضاً ومشوكاً . . .

قصة الحب الآن في أواخر ثلثها الأول ، شبعانة وقلقة ، وقد زحفت على متانتها قوارض التساؤلات ، وأحلام الأمومة ، وبيوت من طين حقيقي لضم الجسدين بعد أن شربا كثيرا من غناء الروح .... بعينيها الشعلتين تسلقت جهامته ....

- متى نتزوج يا حبيبي ؟

أسرف الإغاثى في الكحة حتى شم رائحة رئتيه ، وحذّرته أنّةٌ في السرة من فتاق محتمل ، نادى في سره ... يا جد ميخا .. فجاءته مقولة طفلة ولدها الجد ومات قبل أن ينضجها تماماً. تمسحت المقولة في ذهنه ثم قفزت .....

- قريبا يفرز الثدي اللبن .

قالها ومضى ، وفي المطعم المفخخ جلس ستة عشر ساعة بلا ثرثرة ، كان يضيق عينيه ، فتضيق أعين الجلساء ، يوسعهما فتتوسع . وعندما طالت الجلسة وابتدأ الصباح التالى يخب على البلدة ، خرج (سرور ود طاهر) من جلسته الكمالية، ابتدأ حكايته مع الرئيس ، فأكملتها المقاعد والطاولات ، وصحون الطعام ، وأضاف إليها الجلساء تفاصيل أخرى لم يكن الأمدرماتى نفسه يعرفها .

-٢-

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يشخر فيها (التالاب) بهذه الكثافة ، فعلى مدى قرنين من الزمان شخروا وشخروا وشخروا ، وابتلت عروق البلدة بالشخير . شخروا في عـــهد الزعيـــم (دوبابة)

الذي كان حجّة في الشر ، ذاعت نواياه ، ودُرّست طريقته المضادة لثرثرة الحريم في عـــدة ليالى وغمارات أفريقية ، اعتبرها الأزواج في ذلك الزمان عصيرا طازجا ، ورجال الدين والتديـــن حسنة من اجتهاد (التالاب) لهم فيها أجران ... أجر المجتهد ، وأجر المُصيب . كـــان يحشـــو

حبالهن الصوتية (بالقرضْ) ، فيتوقفن عن الثرثرة ، وحتى بعد أن بدأ سرطان الدمامة يـــأكل وجهه ، لم يتوقف الزعيم عن الشر .

في ذلك العهد خلطت قطة عوراء يملكها (الدخوليون) ذوى النكهة الصعلوكـــة ، بـــين شارب الزعيم ووعاء للبن ، لحست الشارب وفي ذلك اليوم كانت (توجـــار) هـــى البلـــدة الوحيدة في الدنيا التي تحيا بلا قطط أليفة .

في عهد الزعيم (أرتيقا) ، كان الأتراك في قمة تمددهم الإستعمارى ، مفرودى العضـــلات والرئات ، والأعمدة الفقارية ، أدخلوا الحكمة بلغة (التتار) ، وغســـلوا الوطـــن بملوّثـــات (الخانة)، فاصطبغ بالجبخانة ، والشفخانة ، والأجزخانة ، والسلخانة ، والترخانة ، والمسخانة ، والأدبخانة. كان بعض قادتهم صعاليك، أسرفوا في الأُنس، والخمور البلدية ، قـــهروا النســـاء بريثات الليالي ، وتسربوا إلى الريف على ظهور الخيل والمواطنين . في توجار أكرمهم الأدارســـة برعشة العُمَد المقيدين إلى السُّلطة ، طنبر الكريكاب المساء ، وغنى الهيلباب أغنيـــة عرائســـية استلفوها من امرأة عجوز كانت تأكل بها الرزق . وعندما كشّر الزعيم (أرتيقا) مرحبا بهـــم كعادة زعماء الشر في ذلك الزمان ، ظنّوه يساريا مناهضا للغطرسة ، سألوا.....

– من صاحب الوجه الأدبخانى ؟

ردت القبائل ...

– ارتيقا أرتيقاب .

– هل هو شيوعى ؟

سألت الصعلكة التركية .

– لأ ... إنه تالابي .

ردت القبائل .

أمسكوه من شعيرات صدره ، مطّوه بطول الجلسة ، ورصّوا على ظهره أفخم مائدة يدبرها الريف في ذلك اليوم ، كانت الأغنية المستلفة قد دارت عشرين دورة عندما شخرت المائدة الزعيمة ، قال الأقاويل المستقاة من التاريخ الأكبر سنا ... إن رعوس الأتراك كانت تباع في اليوم نفسه في سوق الضروريات القديم كأوعية فخمة لشرب العرق و(المريسة) .

الأقاويل التي عاصرت (أوهاج جعفر) استغربت بهمس ، كيف يحكم التلالاب بساق عرجاء، وعين حولاء ، وشفةٍ أرنبية ، وصوت امرأة ..؟ ... إلى أن شخر في أحد الأيام ، ففر الهمس رعبا .

هذه المرة كانت الشخرة سيِّدة الشخرات ، فقد كبر الزعيم (أوكير) وأصبحت زعامته للشر محاصرة بشيخوخة جبّارة ومضنية . في أحد اليام ثقب ركبتيه الروماتزميتين ، فخرج ماء المفاصل مرتعشا ، قيّد صداع الرأس بحبل ، وكان يزدرى احتباسات التبول التي تباغته من حين لآخر ، بجعل الصبية يركضون على مثانته حتى تحيض ، وعندما كانت السُلْطة تستدعيه في بعض الأحيان إلى أحد المراكز القريبة من توجار لتكريمه أو استجوابه ، أو الثرثرة معه ، كانت عصاباته تسند زعامته بهياكل من الخشب تحت ثيابه وفي باطن فمه ، وبين فكيه ، فلا ترتخى له عضلةٌ حتى يعود .

ذلك الصباح كان (الإيتاب) خشنا ، لوّث موعدا استثنائيا أعده الإغاثي بحنكة ، ونذره لوضع نهاية شبقية للثلث الأول من قصة الحب . كان في قمة مكابداته ، في وجهه فخٌ باك ، وقد نخل جسده (برجيم) الأرق ، وفي جلسة الترميم التي أعدّها (حليمو) وجلساؤه لإعادته لحقل الثرثرة ، كان منطفئا ... ردد بلا هدف ..

أبي بشاي .... آمي القابلة إيلين .. جدتي ملكة النحل ... أصدقائي عيدو وميدو ومرقلص ، الرب أعطى والرب أخذ .

ثم بكى ... فرُفعت الجلسة .

فجأة طار قميص الجميلة ، وطارت نظراتها لتحط على عش للطيور مغبّر ومســـحوق . في قلب الدلتا ذَبح (الإيتاب) شاة أطعمها للكلاب ، أضحك مزارعا متكدر الوجه عندما شـــق فمه، وشتت أسنانه ، امتد بخشونته إلى البيوت ، دخل موائد الإفطار وعادات المضغ والبلــع ، والخروج الضار ، كان صعبا أن ترمش رموش ، أو يخطر هيجان الصباح على رغبة ما ، لكـــن الزعيم (أوكير) كان ماردا ، اعتقل دجاجة مطهيّة ، أجرم فيها بأسنانه، أمسك بدورق ممتلئ بعرقي السمك ، شربه كلّه، وعندما كركرت الرياح الهضمية المختلطـــة بالإيتـــاب داخلـــه ، تجشأ...

- يا تالاب .

انتزعوا أمزجتهم من مجون الصباح المتمثل في تعذيب الدجاج ، وإرقاد الإبل بعضها فـــوق بعض ، وتعبئة (الإيتاب) في أجولة ، وتخزينه لاستغلاله شرًيا في مواسم الصفاء . كـــانوا في حالة من سوء الظن قرصتهم بشدة ، وهيّجت أماكن عدة في هياكلهم خُدِشت مرارا بغضـــب الزعيم . ومن مقعده الذي أُعِد من ست أشجار مسكيتية مرتعشة ، برطم ...

- أسندوا زعامتي بهياكل الخشب .

فسندوها .

- أشخروا في البلدة .

ردد الزعيم ، وانشدّ إلى كرسيه المرتعش .

في إرث القبائل كان هذيان الزعماء طاعما حتى لو قُدِم بلا ملح.لا يعرف أحد كيف مـــلت (أوكير بيشا بيشاب) على أي أساس بكى ، ومن أي منبع نبعت كل تلـــك الدمـــوع الـــتي غسلت جلسته الأخيرة ، لكن شخرته امتدت من دلتا نهر الميروك إلى البحـــر، ومـــن حـــرق المحاصيل إلى إراقة اللبن ، إلى التدلك والتبخر ، والزواج والطلاق ، وســـلق لحـــوم الحمـــير، وإطعامها للناس قسرا ، كانت شخرة سخيفة ، حتى التالاب أنفسهم أحسوا بســـخفها وهـــم

يؤدونها ، وقد كاد أحدهم يبكي تأثرا عندما أضطره التزامه التالابي إلى صفع الكيان التعس ، وذبح حبيبة المطاط وإلقائها في وجهه. وبصق أحدهم تأففا عندما عقد قرانه على الإثيوبية ، بصق أكثر عندما طلّقها .

الذين شخروا في بيت العمدة إدريس إدريساي ، شخروا بحكمة، نظروا إلى ملامحهم في مراياه العديدة ، وشربوا قهوة الزنجبيل وخرجوا .

الذين شخروا في بيت الإمام ، صلوا بلا وضوء . والذين دخلوا المطعم المفخخ ، وجدوه فارغا، فاستغلوا مواقده في سلق لحوم الحمير . وعندما صاحت الكريكابية في قلب سوق الضروريات...

مات أوكير ... مات أوكير ...

توقف الشخير والإيتاب وشخصت حدقات القبور . قال العمدة إدريس إدريساي لرجال السلطة الذين دخلوا توجار متعجرفين ومسلحين ، ومشدودين باستغاثة الأقاويل ...

– إذهبوا .. أحد زعمائنا مات وبكته قبيلته .

سأله أحدهم بصوت راعف ...

– هل هكذا تبكون زعمائكم ؟

قال .. نعم . وبنفس اللهجة خاطب حراس الحدود اليابسين عندما ظنوا أنهم غفلوا ، فتسربت سفاهات الجوار إلى الوطن..

– عودوا إلى مواقعكم ، لقد شخر أوكير من داخل الوطن وليس من خارجه .

دفنوه بين وحل الموتى ، وخسائر الأحياء ، ورماد الشخرة الذي لا زال دافئا يتنفس . كان موته صعلوكا ، وجثته التي سندتها هياكل الخشب ، قابضة على مساندها لا تزال . وقفت

البلدة بلا عاطفة . ووقف التالاب يتامى وخشنين ، يحدقون بعضهم ببعض بحثا عن وجه يقارب وجه أوكير ، كانت الوجوه كلها واحدة ، كلها أوكيرية .

-٤-

- زوجوني تماضر إدريس ... زوجوني تماضر إدريس .

سقطت جثة القرن الجد على صدر القرن الحفيد ، وفارت البلدة الغبارية المزكومة بالقبائل ، وسفاهات القبائل ، الشحن ومولّدات الشحن ، مشت على الطُرق بأحذيـــــة معـــاصرة ذات الدوافع التي حدت (يإدريس إدريساي الحاوي) إلى كتابتها على الرمل منذ أكثر من قرنين من الزمان ، كتابتها بحروف هجائية استعصت على المضغ والبلع والتذوق . كان الحـــــاوي هـــو الغريب الأكثر غرابة منذ أن عرفت القبائل غرابة الغرباء ، كانوا يأتون ذاهلين وملولين ، ملوكا

ورعايا ملوك ، كانوا يأتون حمرا وصفرا وخضرا ، ذوى عيون قططية وكلابية ، وبلا عيـــون . آكلي ثروات ومغامرين ، ومطأطئي الطموح . وفي زحفه الموسمي الأزلي باتجاه الدلتا ، حيـــث مرقده الملوكى البرح ، كان نهر (الميروك) يصرخ ، والغرباء يضربون ، لذّة الطمي تســـهل ، والغرباء بلحسون ، غبار (الإيتاب) يلوّث ويغسل ، والغرباء يتلوثون ويغتســـلون . جـــاء (بعانخى) ملك النوبة الوسيم ، كان بربريا خطرا ، هاص بمماليكه الغُبْش ، وأساوره الحديـــد ، وكرابيجه النحاس التي تفتّق الظهر والأعمدة الفقارية ،قالت بربريته ....

- اخرجوا تمنوس الجميلة .

فأخرجوا مائة (تمنوس) كلهن جميلات .

جاء الأحباش ، كانوا أخف بربرية ، وأثقل وطأة ، انشغلوا بنوم الضحى ، وصناعة الدروع من خشب المسكيت ، وتدوين نجاحاتهم في أحشاء الصخور ، ثم زرعوا (تسفاى) و (أبرهة) و(ألماظ) و (زمزم) و (هايلامريم) بين أسماء المنطقة وذهبوا.

جاء الأكراد والهنود ، وجاء العرب حاملين الدين والدنيا وتمر الجزيرة ، غسلوا واغتســلوا ، وأججوا قبليات القبائل .

كان (الحاوي) هو الغريب الأكثر أناقة وفتنة ، أدهشهم بقميصه الأبيض النظيف ، وحميره الراقصة على بكاء الناي ، ويديه اللتين ترتعشان ، فتخرج من رعشتهما الطيـــور والمنـــاديل . وعندما أكل معهم عجينة الدخن ، وقالت أسنانه ... شكرا جزيلا، ظنوه يسئ اليهم ، شموا من خلفه وغدنة زنيمة ، ومن خلف حميره الراقصة جيوشا وخناجر ونداءات حرب . هزوا تحضـره بخشونة غريبة ، طالبوه بضريبة الثأر ... وحدك ضدّنا والخاسر امرأة . عند ذلك قهقه الحـــاوي قهقهته التي كادت أن تصير مثلا ، قاوم رغبة طاحنة في ابتكار فساتين تلائمهم جميعا . أوقـــف رقص الحمير بيده ، وشد قميصه الأبيض إلى جسده ، ووقف لأداء ضريبة الثأر .

دقت طبول البدائية بعنف ، ازدحم العراء بالفتنة ، ورطنت تحت سقف الشمس معركة وسخة باض فيها الفرسان واللصوص، وعندما همدت أخيرا ، عرفت قبائل (التالاب) ، و (الهيلباب) ، و (الكريكاب) ، و(الشنكت) و(الدخوليين) و(التكارنة) و (العمش) و(الجرابيع) ، وعشرات القبائل الهشة ، أنهم أفسدوا قميص الغريب لاغير ، غمروه باعتذار موحَّد ، أغرغوه في نهر السفاهة حتى يبس عظمه ، اشتهى التالاب قتالا كقتاله ، الهيلباب حميوا راقصة كحميره ، العمش ، نظرات كنظراته الحرّاقة طنبر الكريكاب أحلامهم بالناي ، وعذراوات الخدور اشتهين نطفته وعيالا يشبهونه في المشي والحكي وتطريز المناديل . أفضوا إليه بتريف أفئدتهم ، فقهقه قهقهته التي أصبحت بالفعل مثلا ، استخدم في كبوة العُمد ، وأمنيات القُصّر ، وجفاف الحليب في الأثداء ، وشوهته السنوات المتراكمة حتى وصل إلى القرن الجديد تافها يستخدم عندما تكبو الحمير .

كان نهر (المبروك) محفورا في البيئة بوسامة غير معقولة ، كان غبار (الإيتاب) محفورا كذلك ، وكانت الحروب العشائرية واحدة من اللغات الحية ، في الضحى البربرى ، في الليالي الصلدة ، وصباحات السلام الخشن ، في هيمنة (المسكيت) على الزرع الظليل ، فى العروق التي تحمل الدم والعكاكيز ، في عطاء المبروك وعطاء إخوته الأودية وعياله الخيران ، في كل ذلك وذلك ، قرأ الحاوي كتابا في الحكمة والفلسفة ، وجغرافيا البراري السحيقة ، وأقسم على تنقيته وتنقيحه ، وطباعته طباعة فاخرة .

في البدء صامت خطواته واعتكف ، ثم مشى وتحدث وشم وسمع، وتزوج واحدة من عذارى الهيلباب ، كان عرسه في الفوضى وأيام العسل الأولى عارية بلا ستر ، في الليلة العشرين قتل أخ أخاه ، صرخ شرف مقتول ، رطن العراء وأورق الدم.....

- آخ ... يا توجار الشذى .

تذكر الغريب امرأة غامضة ، كانت فاكهته في زمان ...ما ... في مكان .. ما ... استدعى وجهها وقوامها ، ونزقها الكريه أيضا، اكتشف أنها تشبه مدينته المتخيَّلة ... أنها مدينته المتخيَّلة.

- آخ يا توجار الشذى ....

علقت سطوة الحلم بالغريب ، وسطوة الغريب بالحلم ، شلّخا بعضهما ببيوت من الطين ، والروث ، وعمودية فاجرة ، بشوارع ومقاهي ، وتجارة وزراعة ، وانفلات حضاري ينهض بالقبائل إلى العصور المظلمة من العصور الأكثر ظلاما . بعطاء للمبروك وإخوانه وعياله مقدّر ومصان ، وأقاويل تنبع من صميم البيئة .

صرخت عذراؤه الهيلبابية ... توجار .. توجار ... توجار .

صرخ أهلها الهيلباب ... توجار ... توجار .. توجار .

صرخت القبائل ، أسماء الأحباش والعرب ، وأحفاد لمائة (تمنوس) من مائة نطفة بربرية .... توجار .. توجار ... توجار.

أكلوا المرأة الفاكهة مرات ومرات وتقيأوها ، كانت خيامهم الشَعر لئيمة في العُشرة ، قابضة على عواطفهم بشدة ، كان تفتهم الرحيلى ساحرا متبخترا ، وسلطانا بمليون سيف ودرقة ، كانت حميرهم وكلابهم ، وابلهم ونعاجهم ، وثعالب البر وذئابه تعشقهم هكذا .

- آخ يا توجار الشذى ....

شد الغريب حباله الصبورة واكتوى ، كان يأكل من فاكهته وحيدا، ويطعمها للحلوق المتقيئة حتى يئس قيؤها واستسلمت .

ذلك اليوم ختن تشتت القبائل ، وسرّح عشقها الرحيلى ، غُرست المرأة الفاكهة بجوار دلتا (المبروك) أختا عزيزة ، غُرست داخلها الرطانات ، غُرس الخير والشر ، غُرست الأقاويل البيئية طفلة ، وغُرست سيادة الأدارسة .

الفصل الرابع

-١-

- زوجوني تماضر إدريس ... زوجوني تماضر إدريس .

لّوه من الساحة التعسة كأنهم يلمون زوبعة ، بحثوا عن جهامته فلم يجدوها ، عن تزاحماته ، فتحلت غريبة ورهيبة ، حملوه إلى بيته ، قالوا له .. اصبر ، ثم تفتتـــوا في البلـــدة ، واشـــتعلت الرطانة.

كانت الرطانة واضحة ومنهكة ، واضحة ومكثرة ، واضحة وعصبية إلى أقصـــى حـــد ، رددها الأدارسة بدمامة الأحرف ، وتجهم أولياء الأمر الذين ناموا دهرا ، واستيقظوا فجـــأة ،

كانت حدقات القبيلة واسعة حتى الشعيرات ، ألسنتها نفاذة ، وكرابيجها التي غفت عشرات السنين تحت ألحفة الحضر ، وسيادة الحضريين ، الآن تافهة في الحي تحرس مكابدات الجميلة ، تمنع تسرها إلى أبعد من سمع الحريم ، لم يظهر مغتاظ جديد فحسب ، بل نبت الغيظ حتى تحت ظهر الجميلة ، على ملاءتها العرقانة ، ووسادتها الإغاثية التي كتبت عليها بإصرار ... صباح الخير يا ألبيرت . وعلى دسومات الحِلل الشقية التي ظلت عذراء دون لمس .

امرأة الإمام ، التوجارية الأكثر حياء ومسكنة ، دخلت إلى صحن المكابدات حاملة بخور الورع وملطفات التقوى ، وعدة جُمل في فقه النساء ، وخرجت مبصوقا على حيائها ومسكنتها.

زوجتا العمدة الفاخرتان ، دخلتا بعطور عاصمية وعيون مكحّلة ، وكثير من الترهل ، والتآلف الضرورى للضرات ، وخرجتا ريفيتين ذابلتين .

حريم الهيلباب ، خالاّت المكابِدة ، اهتممن بألسنتهن أكثر ، كن يغذينها ويخرجن .حريم الكريكاب تعلمن الطنبرة من نزوات الرجال ، جلبنها معهن إلى حى الأدارسة ، فأصبح للقهوة في جو المكابدات طعما شبقيا ، ولذّة تتعدى خدر الجسد إلى ترقيص العواطف .حريم العُمُش باكيات كالعادة ، حريم التالاب خطرات لكنهن حريم ، تجلت (حريميتهن) في يوم الشخرة وموت الزعيم ، كن يشخرن بأفعال ناعمة ، كإراقة مياه الأزيار ، وإرقاد أطفالهن تحت أثداء البقر والنعاج ، الآن توفرن في حى الأدارسة مستغلات انشغال الرجال بالشخير البيتي لاختيار خطير جديد .

كانت (سعدية شاشاي) هناك .... كانت الأقاويل البيئية الأكفأ هناك .

– كل هذا الحب يأتي من هذه(المفعّصة) ؟

قالت (عواطف المجنوب) لرحلها المنهك ، وهو يحصى نبضات قلبه وخسارته الرزيلة في لحم الزراف ، ثم تذكرت رسالتها إلى (كيوبيد) المجهول ، رددت ...

– نعم يأبي .

وابتسمت للحزن .

أقاويل الرجال كانت مكحلة بالمصلحة ، كان فيهم مصففون إغاثيون أشد ضراوة من العمدة نفسه ، ومدمنون للشبع الإغاثي لدرجة أنهم كانوا (يقيِّفون) لحاهم بأمواس إغاثية ، ويذهبون إلى الصلوات والأعراس معطرين بعطر (الكافن كافن) الذي أدخلته الإغاثة ، وعممته على ترف المناسبات ، قالوا ...

يا عمدة إدريس .. أين كان الأدارسة كل تلك المدة ؟

– كانوا يتشاورون .

تجهم العمدة أكثر ، أحس بدوار منصبي ، وبوادر انفراج منذرٍ لأزمته الشخصية .. أزمة المستقيم الممسك .

– نعم .. كنا نظنها نزوة .

قال الإمام بتدين مرتعش ومضى .

حقا ، كان الثلث الأول من قصة الحب قصيرا لكنه دسم ومدهش ، وقد حفل بالعديد من المنبهات التي كان يمكن أن تؤرق جبلا ، لو كان الأدارسة يتشاورون حقا لما استغرق تشاورهم أكثر من ارتداد طرف ...

قال أحد السفهاء في نفسه ، وأخرج مجموعة من القبل والنظرات والهمسات ، جُمِّعت من بقايا المواعيد ، ألقى بها على وجه العمدة .

كان قمر الريف مكدودا ، أرهقته الظُلمة ، وشوّهته الأصابع العابثة للصبية والمراهقين ، وهي تنحت تدويره على الأرض ، وتصرخ ..... هذا وجه تماضر إدريس .

كان رمل الريف كافرا ، فرت من تحته العقـــارب ، وثعـــابين (الدفّـــان) وحشـــرات (الكدندار)... كان الثلث الأعنف من قصة الحب لا يزال مكتّفا ، تلك الليلة جاء الجد ميتا ، كان يرتدى كفنا من لهب ، شقه إلى نصفين وخرج ، فبانت زعانفــــه وقرونـــه ، ونظراتـــه المجنونة...

(ميراثك ليس ميراثي .. قدماك اللتان رفست بهما الجد ليســـتا قدمـــيّ ، إذهـــب إلى الأدارسة حافيا ... عاريا .. بلا مجد ولا قدمين) .

قال الإغاثي ... نعم .

واندس في يقظة الليل .

في الصباح كانت رائحة العطر الجديد الذي قرر أن يتعطر به قد لهثت إلى حى الأدارســـة ، التقطتها الأقاويل ، كستها بالشحم واللحم اللازمين ، ورسّختها في الحى ، وبدأ الثلث الأعنـف من قصة الحب يتنفس ، انفتح سجن المكابدات قليلا ، وسُمِح للجميلة بنتف الشعر ، وترويـــغ النظرات ، والبكاء علانية في الطريق العام . وعندما وصل الإغاثى إلى الحي ، كانت ريشـــات تشكيله ، وتلوينه ، قد اكتملت تماماً ، وابتدأ رسامو المناسبات الخشنة يعرقون ويلهثون .

رفع العمدة (إدريس إدريساي) عصاه المسكيت التي لم تعد جديدة في وجه جلســـائه .. قال...

- هل تعرفون قبيلته ؟

رطنت القبائل ...

- قبيلته معروفة .. إنه إغاثي .

قال ... نعم ... نعم ..

وحك رأسه .

- هل تظنون إنه سيقبل بشروطنا ؟

- إذا لم يقبل بها فلنفكر في طريقة أخرى .

قال إدريساوي فقير ، ممتلئ بجلباب إغاثى ، وعمامة إغاثية، وسروال إغاثى ، وقد خرج من بيته بعد أن شرب عدة أقداح من بن إغاثى ، ونال قبلة طازجة من امرأة مغاثة .

تشوهّت جلسة الفكر والمحاورة بتحشؤة جبارة أفلتها (سرور ود طاهر) ، كان الجــزار .. الأمدرمانى .. المحافظ ، قد أتى بطلب عمودى ملح ، وبرغم أن العمدة كان يدرك أن ود طاهر ليس سوى سخلة يتيمة ، وجرادة (هبيلة) لا تفرق بين المبيد الحشرى وعصير الليمون ، إلا أنه ألح في طلبه وفي طلب الكثيرين من أمثاله حتى ينفخ جلسته بأكبر قدر من الهيــاكل ، وتصبــح المعضلة الإدريساوية معضلة توجارية مفتوحة . وانطلاقا من هذه الفلسفة ، جــاء (حليمــو) منهكا، و (طه الأعمش) شاعر المذبحة العثمانية عجوزا يزحف على أربع ، جـــاء أجــداد القبائل وأحفادها ، وجيلها المعاصر ، حتى (إدريس سعيداي) قيّدوه بلطــف ، ووضعــوه في جلسة الفكر والمحاورة كأول مجنون في العالم يُسمح له بالغناء المجروح في جلسة مصيرية ...

هو ... هو ... هو ... أنا كلب ألبيرت ، وألبيرت يستحق الموت .

هو... هو... هو... ألبيرت كلب العمدة ، والعمدة يستحق الموت .

هو... هو... هو ... العمدة كلب الحكومة ، والحكومة تستحق جهنم .

عرقت الجلسة فجأة بدخول الإغاثى ، كان أوسم مكابد تعرفه البلدة في حياتها ، وقد تجلت كلاسيكيات المكابدين علي وجهه ، في أحلى صورها .

كانت نظراته مشرّدة ، أنفه متمخطا ، وحول عينيه هالتان لئيمتان من تصميم الأرق ، حيـد الجلسة بتنهد مركز ، وتحدث ، فكان صوته مجروحا....

- قبلت شروطكم جميعها .. أفعلوا ما تشاءون .

عند ذلك انفرجت الأزمات جميعها دفعة واحدة ، أزمة المستقيم الممسك ، أزمة الأدارسة ، وأزمات القبائل المدمنة على الشبع الإغاثى .

-٢-

يومان نحْليان طافا بالبلدة الغبارية ، عرق فيهما رسامو المناسبات الخشنة عرقـــا غزيـــرا ، استعانوا بأحلام النساء ، وصلوات الاستخارة ، واستضافوا الحِكَم الباهتة لأجـــداد القبـــائل ، لوّنوها بصبر ورطنوا ...

– عبد الله باشاب الإغاثى ، اسم محتشم ، يشرّف الأدارسة وعيالهم القدمين بإذن الله .

حملوا الاسم ملفوفا بعناية ومحاطا بتعقيدات الولادة الصعبة وضعوه في قلب عمودية العمد ة ، كانت أزمته التي استمرت خمسين عاما قد ابُتلت بعنف ، وتحولت إلى أزمة مغايرة ، أخفقـت

فيها جهود (العطرون) ، وتجلت سمعته الكاذبة بوضوح،استأذنهم عشرين مرة في التمرحض قبل أن ينطق بجفاف اللسان والدم والخلايا ...

- لا بأس .. لا بأس .

كان الإمام إدريس أحمد مختبئا خلف تدين غريب الأطوار ، أصيب به مؤخرا ، صلوات بالليل والنهار ، أوراد مطولة ، ونوافل ودعاءات باكية ، وكسوف كلي في سماء البلدة ، تعقبت الأقاويل امرأته عدة مرات فاكتشفت تجردها من الفتنة ، وخلو يديها وقدميها من حناء المتزوجات، تركتها وعادت لمواصلة مضغ الوجبة الأكثر دسامة . اقتحموا كسوفه الكلي ، أضاء أمامهم برهة ...

- إسم مبارك إن شاء الله .

ثم انطفأ .

كان (الهيلباب) أنسباء الأدارسة ، وأخوالهم المعتمدين منذ قرنين من الزمان ، قد رطنوا فيما بينهم ، استدعوا أسماء هيلبابية ميتة ، كانت تزيِّن أجدادهم فيما مضى ... (سوميت الهيلبابي) ، (طردان أسد المبروك) ، (النجعان) ، (الزوحى) و(أبو سردبّة) ، حيّوها باحترام ، واعتذروا لإماتتها كل تلك السنين، حين وُضِع أمامهم (عبد الله باشاب الإغلتي) ، تذمروا قليلا ثم ما لبثوا أن رضوا . حملوا المولود وقبلوه .

القبائل الأخرى لم تكن معنية كثيرا ، سأل مصففوها الإغاثيون ، ومدمنو الشبع الإغاثي داخلها ...

- هل سيظل ألبيرت في البلدة ؟

قيل نعم .

قالوا .. ما أجمل الاسم وأحلاه .

على الصعيد الحريمي نشطت معركة ناعمة بين (عواطف المجذوب الإدريساوي) ، وإحدى زوجتي العمدة ، كانت الأولى متفلسفة ، خرجت من الصيغ المعروفة لجلسات الحريم منذ عهد ، تلك الجلسة أمسكت (بعبد الله باشاب الإغاثي) من وسطه ، رجّته بعنف وقالت ...

عبد الله إسم جميل ... أما باشاب الإغاثي فيذكرني بأسماء المصارعين ، إنه اسم تافه لا يرقى إلى المستوى .

سألتها زوجة العمدة ...

- ماهو المستوى ؟

- مستوى الأسماء ، ومستوى الشخصية التي سيطلق عليها .

- ولكن العمدة إدريس رضى عنه .

أضافت زوجة العمدة ، وتكبرت قليلا في جلستها ، لم تحن المعلمة الأولى والأخيرة في البلدة فلسفتها احتراما ، بل رفعت من رأسها أكثر ...

- حتى ولو .. على أي حال ، العمدة ليس من سيتسمى بذلك الاسم.

كانت زوجة العمدة فاخرة لكنها بلهاء ، كان شعرها مصففا بطريقة فتيات الحضانات ، يداها مثقلتين بالذهب حتى الرسغين ، وحناؤها الزوجية مزمنة في جلدها لم تبهت أبدا ، كان غضب العمدة في بلهها غضبا مقدسا ، ورضاؤه ما بعده رضاء ، حتى اضطراب مستقيمه كان فاتنا في بلهها ، أمسكت بفلسفة المعلمة فطحنتها ، وثيابها فمزقتها ، وعندما تدخلت (حريمية) الحريم وأنهت المعركة ، كان المستوى التعليمي لعواطف المجذوب ، قد تدنى بصورة مخجلة ومحزنة.

وجاءت (تمام الإثيوبية) إلى حي الأدارسة ، كانت مبصلة ومبهرة ومطبخية الشكل ، في وجهها لغة الهزائم كلها ، منذ بذرت بذرتها الإدريساوية لم تدخل الحي ، وحتى عندما مات

سعيداي الإدريساوي ، وقُسِّم إرثه وحداده ، وبُعثِرت طواقيه العديدة ، أُرسل إليها النصيب وهي بعيدة .

شمتها النساء برهة ثم تكهربن ...

– ماذا تريدين ؟

وضعت عدة أقداح من عجينها الدخني على الأرض . كان حامضا ومشوّكا ....

– لقد شفي إدريس وهذه كرامتنا بذلك .

ثم ذهبت .

لم يكن الشفاء الذي قصدته الإثيوبية يشبه شفاءات العلل المزمنة أبدا ، كان شفاءً مهووسا ، طلب فيه (الكيان) خروفين مشويين بلا ملح ولا بهارات ، وعروسا مبهرجة من بنات التالاب ، ومحبرة وقلما حتى يقرض الشعر . وعدته أمه خيرا وزغردت ، ثم صنعت عجين الكرامة وأسرعت إلى حي الأدارسة ، عندما عادت كانت حشرات (الكدندار) ترقص بلا سيقان ، والأغنية التعسة تملأ فضاء البيت وفضاءات البيوت المجاورة .

المسافة بين حدود البلدة ودلتا نهر الميروك ، كانت عبارة عن عدة مسافات رُتِّقت بعضها ببعض ، بحبال غير مرئية ، كانت بعض أجزائها جرداء ، بعضها خضراء ، بعضها تافهة لوّثتها العورات، والخلاصات المعوية الطارئة ، وبعضها محترمة تتوقف عند احترامها اللهاثات قليلا قبل أن تمضي .

منذ زُرعت الدلتا ، زُرعت تلك المسافة بالعرق ، وغناءات المزارعين وبكاءاتهم ، ونشاطات الحمير ولكاعاتها ، زرعت بالبذور المتساقطة من تلف الأجولة ، ومناقير طيور القيردون ، وهي تعبئ معداتها من ذلك التساقط .

في قلب تلك المسافة في الجزء المحترم منها ، كان يرقد قبر (الحاوي) مميزا بعلـــو قامتـــه ، ونقائه الأبيض الذي كان الأدارسة يزفونه سنويا بالجير العاصمي ، والسواعد القبلية الشـــابة ، وقد استبسلوا على مر السنوات في محاولة تحويله إلى قبر صالح ، تســـتحاب الدعـــوة عنـــده ، وتصفو السرائر حتى تدوخ القطيعة ، ويبكي العدو في صدر عدوه . أغرقوه برمل ناعم جلبـــوه من قبور وأضرحة قاصية ودانية ، رصّوا حوله أزيار الماء ، وأباريق الوضوء ، وكتبوا على نقائـــه الأبيض آيات ودعاءات ، وعبر وعظات ، وسلسلة من النسب الشريف بـــلا نهايـــة . كـــانوا يبهرون به الزائرين ، ومهووسى الأولياء والكرامات ، وكانت حصيلة الصدقات التي تُحصـــد من شركه ، تضاف إلى حصيلات مجهولة ، وتتوه بلا هوية . وكان في كل مرة يوشك فيـــها القبر أن يصلح فعلا ويتر بكراماته ، ترطن الأقاويل المستقاة من التواريخ الميتة ، تتحكر في قلـــب صلاحه ، تجيء جيوشا من الحمير الراقصة ، ودموعا همجية من بكاء الناى ، ويدين مرتعشـــتين تخرج من رعشتهما الطيور والمناديل .

وفي إحدى السنوات وعندما أرادت السلطة العاصمية تبويـــب الأوليـــاء ، واســـتخلاص كرامتهم وتصديرها إلى الدول المجاورة ، أبرقت إلى العمدة...

– أفيدونا بكرامات وليكم التوحاري ، ونبذة من سماحته وخصاله ، وتأثيره في الناس .

ذلك اليوم خطرف العمدة وتجلى ، وابتكر كرامات برية وبحرية ، وبرمائية ، وبعيدة تمامـــا عن بيئة الغبار ، كثّفها إلى نبذة سمحة مخترعة أيضا ، وأرسل حصاده المكثّف إلى العاصمة.

بعد عدة أيام صغر العمدة كثيرا ، صغر حتى صار إصبعا في وسط العُمد المـــهايين ، فقـــد قدمت إلى البلدة لجنة لتقصى الحقائق كوّنتها السلطة من حكوميـــين خشـــنين ، ومهووســـين بالأولياء والكرامات ، ونساء محترفات بحواس للشم لا تخطئ أبدا، وخبراء في التربـــة والغبـــار الصالح ، وتجار مستثمرين . تقصت اللجنة بعنف ، وعندما فرغت ، نُهرت القـــبر والعمـــدة ، وعيّنت عمالا حكوميين لملء الأزيار حتى تقضى على شائعة الأزيار التي تملأ نفسها بنفسها .

كان الوقت ضحى عندما جئ بضرار الإدريساوي عم الأدارسة وخال الهيلباب قبل سبعة وأربعين عاما ، كان الوقت ضحى أيضا عندما وصلت الجميلة تماضر إدريس ، والوفد المرافق لمكابداتها إلى القبر ، كانت متهللة الوجه والمكابدات ، وقد عُدِّل تصميمها البناتي ، أُضيفت إليه حناء رقيقة ، وأُضيف دلع مزاجي ، وفهم لا يتوفر إلا لدى المجربات ، تاهت بعينيها في الصلاح المُختَرع إدريساويا ، وتمرغت في الرمل الناعم وشهقت ، رفعت يديها إلى السماء خمسين مرة ، قالت ...

- ربي ,,, ببركة جدى إدريس ، أتمم كل شئ على خير .

ردد الوفد المرافق لمكابداتها .

- آمين .

-٣-

يومان نحليان آخران طافا بالبلدة ، عرق فيهما رسامو المناسبات الخشنة أكثر ، رسموا لوحة مدهشة حفلت بالطقوس الحية والميتة ، حتى دموع الفرح فصّلوها ، ومناداة الإغاثى لأنسبائه الأدارسة ، لونوها بلون كحلى ، لم يكن هنالك داع لدعوة أحد ، كانت البلدة كلها مدعوة منذسقطت الجميلة في الفخ المبتسم .عندما وضعوا ريشاتهم وبدأوا يتحففون ، طالعتهم لوحتهم المدهشة بفراغ منهل لم يضعوا له حسابا .

كان الإمام إدريس أحمد قد خرج من تدينه الغريب ، أضاء في البلدة نهارا كاملا ، ذهب إلى بيت الإغاثي مصحوبا بشاهدين منتقين من خلاصة السمعة الطيبة للقبائل ، وبجيش من الأقاويل التي حشرت نفسها حشرا ، وثّقوه شرعيا ، علموه سننا وفرائض،التهمها بشراهة لدرجة أنه توضأ للجمعة قبل موعدها بستة أيام . كان في وجهه فخ ممتلئ ، كانت إحدى أذنيه ترتعش، وقد بدا بلحيته الملساء ، وعمامته (الكِرب) ، وساعة الجيب الغالية التي ضحكت بسلسلتها ، أشبه (بجبي) متنكر .

خرجوا من بيته بنفس الابتسامات التي رُسمت في اللوحة المدهشة ،ساروا في البلدة بنفس الخطى ، فجأة أضاء الإمام بشدة...

- ماذا فعلتم بطهارته ؟ هل سيُزف هكذا ؟

عند ذلك بهت تناسق الألوان ، وابتدأ العرق من جديد .

لم يكن الفراغ اللوني محدودا حتى يُردم بأي لون وينتهي الأمر ، كانت مهمة شاقة ، احتلبت ما تبقى من النهار ، وعدة نهارات وليال ، فهو لم يكن طفلا حتى يحركوا أمام عينيه طائرة من الورق ، ويقولون ..انظر للطائرة .. فينظر ، ويكملون مهمتهم . ولا قبليا تأسره التقاليد فيردمون على قبليته حشدا من النساء المزغردات ، يقصِّرن صراخه كلما طال ،سالت الفتاوى بطول البلدة وعرضها ، أطلق الكثيرون لحاهم ، سموها (سحابات المطر) تيمنا بسحابة المجذوب الإدريساوي ، حكّوها ونزوا بها ... كان (سرور الأمدرماني) أحد الذين حكّوا سحابات المطر الكاذبة.....

- سكّروه بعرقي السيسبان ، ولن يشعر بشيء .

عُزلت فتواه عن فتاوى البلدة ، وطُرد من جلسات الحوار .

فتوى العمدة إدريس إدريساي كانت طرية برغم جفاف اللسان والدم والخلايا، استدعى الإغاثي إلى بيته ، قال ....

- اذهب إلى العاصمة حيث التعقيم جيد والأطباء متوفرين.

صرخت مكابداته ومكابدات الجميلة في صوت واحد برغم المسافة التي تفصل جلسات الرجال عن جلسات الحريم ....

- لا ....لا....لا

- إذن ماهو الحل ؟

أضاف العمدة واستأذن في التمرحض .

ذلك النهار الأعنف في قصة الحب كلها ، اكتسى الإغاثي بشجاعة غريبة ، استمدها من مستقبل جميل ينتظر باكيا ، سلّم نصفه غير المؤهل لثلاثة من خبراء التأهيل المحلي ، أهّلوه بسخاء، بحضور العمدة إدريس إدريساي والإمام إدريس أحمد ، والأقاويل البيئية ، وحليمو ، ووفد من حرّاس الحدود اليابسين الذين ظنوا مرة أخرى أنهم غفلوا ، فتسربت سفاهات الجوار إلى الوطن .

بعد يومين من تلك الواقعة دخل توجار سائح أفريقي ، دلّت ملامحه ونقوده الخضراء وشلوخ العذاب التي تتنفس في وجهه ، أنه سلطان قبلي كُنِس من لحم السلطنة بطريقة أو بأخرى ، كان حضرى الثياب ، يتحدث الخشونة بطلاقة ، ويترنم بأبيات من شعر الصيد والقنص ، وإبادة الأعداء.

كان قد اقتنصه حليمو دون فخ ، أخذه إلى مطعمه ، احتلب منه حصيلة خمسة وستين يوما خاسرة ، ثم أسكنه في بيت توجاري عكر كان فيما مضى ملكا لعائلة من الجن وهجرته . سمّاه... الصديق (أوجستو) ، قال في نفسه .. لابد أنه جاء يستعيد لياقته لمعركة ما ، وعندما استفسره عن اسمه وسبب قدومه فيما بعد ، قال بخشونته الطلقة ....

- صديقك أوجستو ... جئت أستعيد لياقتي وأذهب .

كانت البلدة في ذلك الوقت مرتبكة تماما ، لكنها لم تفقد وعيها وحضورهـــا الريفـــي ، قرصته ببعوضات (الأنوفليس) ، ومرارة (الإيتاب) ، وعشـــوائية الأقـــاويل ، و(مخـــاخيط)وريالات الصغار ، سأل عن ألحفة واقية من الغبار ....

فاعتذر سوق الضروريات بشدة .

سأل عن أنثى مسلية ....

جاءوه بالكريكابية سعدية شاشاي ، جدّة متحلطة تحمل جبلا من المسليات التي لم يكـــن يرغب فيها بأى حال من الأحوال .

سأل عن أشرس رجل في البلدة حتى يستفيد بخبرته ...

أخذوه إلى قبر (أوكير التالابي) ، الزعيم الراحل ، والذي أخفق التالاب في اختيار خطـــير يضارعه ، فاستمروا تحت زعامته حتى بعد أن تحولت إلى تراب.

أحس السلطان بالملل ، احتفل بعيد ميلاده بشموع من القصب، تحت أشجار بلا ظل ، قال ....

(Happy birth day to me)

وتلملم للرحيل .

عند ذلك لمعت صورته المميزة في اللوحة المدهشة ،قال رسامو المناسبات الخشنة ...

– شاهد عرس مثالي .

أخذوه إلى عبد الله باشاب الإغاثي ، كان راقدا في بيته العكر، مكتّفا بعشـــرات القوانـــين الصارمة للجراحات العشوائية ، كان خبراء التأهيل المحلى قد زودوه بها ، كانت رقدته علـــى فراش خشن ، عيناه معلقتين في سقف طيني ، وقد أخفي مكابداته بمهارة ، وتلـــهى بنخامـــات التمباك، وحلوى اللكوم ،التي كان زائروه الغشيمون يدسونها تحت رأســـه باســـتمرار . حيـــا

الصديق (أوجستو) بابتسامة ، وفي غضون ساعتين كانت الصداقة الإغاثية – الأفريقية قد نمت نموا واضحا ، تحدث الصديقان عن خط الاستواء ، وطِب المناطق الحـارة ، ودعاة الإصلاح الاشتراكيين الذين لا يتركون حالا على حاله .

ألقى الإغاثي بأوراقه القديمة كاملة لكنها منقحة ، خلت من مقولات (الجد) وسوشـيلا فتاة الزاندي التي شمت رياح التغيير منذ مدة ، فنفدت بجلدها من الثرثرة .

– هذه دعوة صادقة لقضاء عسل دائم عندنا .

تحدث الصديق أوجستو بخشونة متهيجة ، ثم ما لبث أن تذكر أعـداءا يـانعي الـرءوس ينتظرون الإبادة ، خفف هيجانه بقليل من التهتهة ، ورقق خشونته حتى صارت أشبه بخشـونة الرُضّع الجائعين ...

– ولكن انتظر .. سأؤكد لك الدعوة فيما بعد .

الرائحة التي خدشت صداقة الصديقين ، لم تكن مدونة في اللوحة المدهشة ، والأطباق الـتي هاصت ممتلئة وفارغة ، وفارغة وممتلئة ، والأجساد التي تناحرت في البيت العكـر ، لم تكـن مدونة أيضا . كانت الإضافات من اختراع حليمو ، فقد اكتشف صاحب المطعم المفخخ بلكنز من أزماته العائلية ، إن الرزق الأصيل يأتي بصعوبة، حمل مواقده وشواءه ، واحتلب الرزق مـن رقدة الجراحات العشوائية .

كان لقبيلة (الدخولين) برغم حيادها الذي ارتضته لقبليتها، وسكناها في واحد من أكثر الأحياء دمامة في توجار ، حس فني رهيف ، تجلى في ملامح أبنائها و حبها للقطط والكـلاب الضالة ، ووقائع العشق النظيفالي كانت الأقاويل تلتقطها من حين لآخر.تجلى أكثر في صنعـها للطبول وطنابير الفرح ، وزركشتها، وبيعها للبلدة بمقابل زهيد .

كان زعماؤها خجولين ، ترتخي أعينهم بشدة ، وتصطبغ خدودهم بالأحمر كلما واجـهوا غريبا ، او اضطروا للجلوس بحياد في جلسة توجارية مصيرية . وعندما انشقت النافذة البدينـة

كان تذوقهم للإغانى مغايرا ، اعتبروه فنانا يرسم بالأكل والشرب والملابس ، واعتبروا ثرثرته الليلية في مطعم حليمو ، تنفسا إبداعيا جديرا بالمتابعة والتأصيل .وقد ظلوا لسنوات طويلة ينتظرون حدثا فنيا مزلزلا ، إلى أن وُلدت قصة الحب ، فتنفسوا ارتياحا .

ذلك النهار بوغت حيادهم بجدارة ، ابتلوا بخشونة طلقة ، واصطبغوا بالأحمر حتى عروق أرجلهم ، وفي وسط حيهم الدميم وقف السلطان أوجستو ، ووقفت نقوده الخضراء ، والأقاويل البيئية ، شُربت طبولهم وطنابيرهم ، ووقائع عشقهم النظيف حتى ستين سنة قادمة ، وحُملت إلى حي الأدارسة .

-٤-

الثلث الأخير من قصة الحب .

كان ثلثا مبجّلا تعهده السلطان أوجستو برعايته الغريبة ، تبعثر في وسط عادات البلدة وتقاليدها ، ملقيا بنقوده الخضراء وعرقه الأفريقي ، ولياقته التي استعادها مضاعفة ، أباد بها الثوابت ورءوس المواضيع ، انتزع كيانه من بيت الشياطين العكر الذي غرسه فيه حليمو وانتقل للإقامة بشكل مباشر ووقح في بيت الإغانى قريبا من منبع المكابدات الذي بدأ يجف أمام كثبان السعادة الكاسحة .

كان رسامو المناسبات الخشنة في حالة من اللهاث الفني تجلى سافرا في تشتت ألوانهم ، ومطاردتهم لأوجستو عبر المسام الواسعة والضيقة للوحتهم المدهشة . حين أضافوه كانوا قد أضافوا شاهد عرس مثاليا ، وفوجئوا بالشاهد أبا للعريس ، وأما ، وإخوانا ، وجدات ، فوجئوا به قبيلة من الخشونة الطلقة تجادل في المهر ، وحطب الوقود، وألوان الخراف ، وطول الزغاريد وعرضها ، في كحول المغنيين ، وقوام الراقصات ، ومنابع الشتائم ، وعدد السكارى الذين سيتراشقون بالزجاجات الفارغة ويتلفون الحفل .

قال ...

- عينوني وزيراً للعريس .

فقبلوا .

قال ...

- أنا وكيله أيضا .

فقُبلت وكالته .

وفي أحد الأيام زحف بخشونته إلى أماكن وعرة ، طلب أن يرى الجميلة التي كانت مخبأة تحت ألحفة كثيفة من (الدلكة) و (العكش) والحناء ، وعطر (الشاكوين) . كانوا يدربونها على الحكمة وليل المتزوجات ، والرقص ، والتدبير المنزلي ، والغضب المدلل ، وترك منزل الزوجية من حين لآخر ، وضعوا في أذنيها وسوسات تقليدية ، وبين يديها ونيران المواقد قائمة مبهرجة لأطعمة غربية كان أحد الأدارسة العاصميين قد ساهم بها ، مبيّنا أنها الأطعمة الأكثر وجاهة لقبائل الإغاثيين التي ينحدر من رحمها ألبيرت .

قالت الحريم لتماضر ..

- تعلميها جيدا واتركيها ... حتى إذا أراد التغيير من الدخن ، اطبخيها له .

كانت أصابع الجميلة مشغولة بحنائها ، عيناها مشغولتين بتتبع دموع البصـــــل ـــ ودمـــاء الطماطم ، والبيض العيون ، وحساء (الزرمباق) ، والفسيخ ، وطبخات أخرى سيئة الرائحـــة أقسمت أن لا تجيدها أبدا . وكان جسدها التحتى يرتج على إيقاع أغنية الكيان التعســـة الـــتي أصبحت الأولى في ترقيص العرايس ، وفاضت حتى وصلت الى كل أقاليم الوطن ، يُترع لحمـــها في مكان ، ويُرمم في مكان آخر ، وتكسبها الضرورات البيئية والاجتماعية ألوانا مختلفة .

كانت تُردد في العاصمة ..

(تيت ... تيت ... تيت ..

أنا عربة العريس ..

والعريس في البيت .

نار .. نار .. نار

أنا رأس مال العريس

والعريس سمسار .

في غرب البلاد كانت اللغة أمية ، طقوس العرس موسومة بالجوع ، وفتران (الصلمبـــوى) و (الكدكاى) تمثل اشتهاءا مهووسا ، كانت البنات يبتلعن ريقهن وهن يرددن ..

هوى .. هوى ... هوى

أنا صلمبوى العريس

والعريس أكّال .

واى ...واى ...واى

أنا كدكاى العريس

والعريس بكاى .

كان جنوب البلاد بعيدا ومحاصرا ، وكانت الحرب قاسية القلب ، فماتت الأغنية وهـــى في الطريق .

حليمو هو الذي جَر الرغبة السلْطانية وملّحها ،نقلها إلى زوجته ، تذوقتها بغرابة وحملتـــها بطعمها الغريب نفسه إلى منبع الزوجة المستقبلية ، وهناك غضبت العادات والتقاليد ، اصطبغت بالأحمر وهى تؤدى مهمتها التجهيزية ، كان (أوجستو) رجلا غريبا تقّرت الأقاويل جســـده وتوقفت من التعب دون أن تنفذ أكثر وكان انكشاف الجميلة على عينيه في أيام كهذه يتطلب توسلا خاصا إلى جميع حُساد البلدة أن لا يحسدوا ، وبكاء حقيقيا على قبر مائة جـــدة قبليـــة أرسين قواعد العرس في توجار ، وطلب المغفرة .

رُدت الطبخة إلى حليمو دون أن يلتهمها أحد ، أعادها إلى أوجســـتو بـــاردة ومحـــاصرة بالذباب..

– لقد رفض طلبك يا صديق ... انتظر حتى يوم العرس .

أخرج السلطان من جيبه قلما من خشب (المهوقنى) كان هدية من عبدة مثقفة حفظـــت كتاب رغباته أيام مجده السلطانى ، وكانت لجسدها المميز قراءات ممتعة ومدهشـــة ، وعندمـــا سُحبت السلطنة ، سُحبت معها . وبقى قلمنا المهوقنى صديقا ولصيق ، ومذكّرا ومتذكـــرا . غرس القلم في محبرة جسده فخرج أحمر ، ثم كتب على راحة يده رسالة غريبة ..

وفقا للإعتقادات النحسة لقبائلنا ، فأنني قد أموت مسموما أو صعلوكا أو ميتة امـــرأة إذا لم أحقق رغبة رغبتها .

أُدخلت اليد الرسالة أولا ، قرأتها عواطف المجذوب بمتعة واندهاش ، وبدت لها شعرا همجيـا كتب بالدم تحسرا على محبوبة ضائعة ، تمنت لو سطر حليمو مثلها على رأسه الأصلـــع ، اذن

لاستعادت جزءا من عمرها الذهبي . استيقظت من حلمها ، امسكت باليد الرسالة ، (توجرتها) بمجهود خارق وتلتها على سمع الحريم ...

لقد أقسم أوجستو على رؤية تماضر ، وإذا لم يرها سيأتي أهله ، يقتلونه ويقتلونها ، هذه عاداتهم .

كانت (توجرةً) مرعبة ، تراجع الفرح أمامها ملسوعا ، وفرت العادات والتقاليد إلى نفوس وارثيها ومورثيها وهي عرقانة ، أُدخل السلطان أوجستو إلى منبع الزوجة المستقبلية ، بغرابته الغريبة ، وعينيه المخلوعتين ، اغتسل لساعة كاملة ،غازل وغوزل ، وشرب الشاى والقهوة والحلبة باللبن ، وضرب موعدا لإحدى المجهِّزات ، اعجبته شلوخها وبدانة أنفها ، وأعجبها فجوره وطريقته في الضحك ، كانت يده الرسالة لا تزال حمراء وكذابة ، وعينا التوجارية عواطف المجذوب لا تزالان ممتلئتين بالكذب الأحمر وحالمتين .

فجأة تشجعت العادات والتقايد ، خرجت من باطن الإرث مستاءة ومتماسكة ..

- يكفي ما رأيت ياسيدى إننا مشغلون بتجهيز العروس .

قالت جدة من جدات الجلباب ، أمسكت بالأفريقي من عرقه ، وقادته إلى الخارج .

كان عبدالله باشاب الأغاني مدرعا بالصبر يتسوق من تقاليد العرس التوجاري ، على يده اليمنى سوط من (العَنَج) يجلد به الهواء جلدات متتابعة ، وأمامه جمهور من الصبية يصرخون ...

- اضرب ... اضرب .

ظهر أوجستو في وسط سوق التقاليد منفعلا ، عيناه ممتلئتان بالمشلخة ذات الأنف البدين،ورغباته المخلوعة تخب من جسده خبا ، قال انفعاله ...

- الآن أستطيع أن أرقص في عرسك يا صديق .

عممت الأقاويل انفعاله ، وعلى الفور أوقظت من رقدمّا عدة أغنيات أفريقيـــة عنيفــة ، كانت قد دخلت توجار في إحدى السنوات، حامت وتصعلكت وأرهقت ونامت من شـــدة التعب ، جئ بها مغبرة ومتثائبة ، بأداء صبية محليين ، ووضعت تحت طلب الصديق .

-٥-

أيوى ... أيوى ... أيوى

تم ... تم ... تم ......

دكرب ... دكرب .... دكرب ...

طير الكريكاب المساء ....

جاء الهيلباب بزخيرة من الغناء الوارف والرطب . وجئ (بفرج الإدريساوي) شاعر اليـوم الأول لانشاق النافذة البدينة ، من إحدى حانات الريف البعيدة ، أوثقوه إلى الوعى بصعوبـــة ، ولقنوه أغنيته القديمة بعد توثيقها شرعيا ، فغنى ....

عبد الله الإغاثى سلام عليك عبد الله .

نحن ضيوف عليك وإنت صاحب الحِلة .

توجار الصفائح فيها كبت والله .

وجمل الشيل برك فوق الفرح واتجلى .

معروف في الخلائق زاهي باهي الطلة .

بس جايين نبارك ياالحبيب عبد الله .

هاصت أسماع السامعين ، ترامت (شبابيل) النساء ، عسكرت في الوجوه العجفاء والطرية والطفلة ، تفاصيل السعد والسرور .

كان عبد الله ياشاب الإغاثى وعروسه يجلسان في وسط الابتسامة ، يلتفتان يمينا فيصافحانها ،ويسارا فيصافحانها ، كان السلطان (أوجستو) راقصا بمرونة صعلوك ، وكالته عن العريـــس تلاشت تماما ، وامتلأ بالمشلّخة ذات الأنف البدين . وكان حليمو عند حسن ظن الليلـــة بـــه، مجتهدا كنحلة ، عيناه فى الفحم ، ويداه في الشواء ، وصبيانه الذين عينهم خصيصا لهذه الليلـــة ستروا عورات البطون بجدارة .

قيل للعمدة إدريس ....

- هل أنت راضٍ ؟

قال ... نعم .

وابتسم احتفالا بعودة مستقيمه إلى إمساكه القديم .

قيل للإمام إدريس .....

- هل أنت راضٍ ؟

ضحكت لحيته ، ابتعد قليلا ، صلى ركعتين شاكرتين وعاد .

ذهب البعض إلى ضريح الحاوي ، وعادوا بغبار يصيح ... نعم ... نعم .

زغردت (الإدريساويات) بزغاريد بالغة ومراهقة ، وحديثة الولادة ، ألقينها في وجه الإيتاب فخفف رطانته ، حتى حراس الحدود اليابسين شاركوا ، جاءوا بطلقات حكومية عجوز، أطلقوها في فضاء الليلة ، وفي اللحظة التي استعد فيها (التالاب) لفقرة الشر التقليدية ، والسكارى للتراشق بالزجاجات ، وصلت الرسالة ، كانت حادة ومختصرة ، قرأها الإغاثي بقلبه وسقط محدثا شرخا نازفا في جسد الابتسامة ، كان دمه العاشق مجنونا قفز حتى وجه الجميلة ، تشبث به قليلا ثم دهس العينين الشعلتين فانطفأتا . كانت جهامته تتآكل حين فاضت أغنية الكيان التعسة أصلية وموغلة في الإثم وهمجية ...

هو ...... هو ... هو ....

أنا كلب ألبيرت.. وألبيرت يستحق الموت .

الدوحة- عمّان ١٩٩٦

إصدارات تم طبعها

- السنبلاية — محجوب شريف
- لوحة وطن — قاسم أبو زيد
- ليل المغنين — عمر الدوش
- نبض الخاطر — صلاح يوسف
- الرحيل في الليل — عبد الرحيم أبو ذكري
- علاقات الأرض في السودان — محمد إبراهيم نقد
- إصلاح الخطأ بين الجماهير — عبد الخالق محجوب
- مبادئ وموجهات لتحديد البرنامج — محمد إبراهيم نقد
- الماركسية ومسألة اللغة في السودان — د.عبد الله علي إبراهيم

إصدارات تحت الطبع

- أزرق اليمامة — بشري الفاضل
- نار الزغاريد — أمير تاج السر
- عواء المهاجر — أمير تاج السر
- الإرهاق الخلاق — عبد الله علي إبراهيم
- علم الجمال — محمد عثمان الفكي
- مختارات من شعر عالم عباس — عالم محمد عباس
- حكاية البنت التي طارت عصافيرها — بشري الفاضل

إصدارات تم طبعها

■ السنبلاية	محجوب شريف
■ لوحة وطن	قاسم أبو زيد
■ ليل المغنين	عمر الدوش
■ نبض الخاطر	صلاح يوسف
■ الرحيل في الليل	عبد الرحيم أبو ذكري
■ علاقات الأرض في السودان	محمد إبراهيم نقد
■ إصلاح الخطأ بين الجماهير	عبد الخالق محجوب
■ مبادئ وموجهات لتحديد البرامج	محمد إبراهيم نقد
■ الماركسية ومسألة اللغة في السودان	د.عبد الله علي إبراهيم

إصدارات تحت الطبع

• أزرق اليمامة	بشري الفاضل
• نار الزغاريد	أمير تاج السر
• عواء المهاجر	أمير تاج السر
• الإرهاق الخلاق	عبد الله علي إبراهيم
• علم الجمال	محمد عثمان مكي
• مختارات من شعر عالم عباس	عالم محمد عباس
• حكاية البنت التي طارت عصافيرها	بشري الفاضل



الإنسان هو مركز المشروع السردي في «نار الزغاريد» ومصائره تتحول الى كنوز شعرية في ذروات الحكايا، فصارت الكتابة رقصة حميمة يؤديها المكان فى قلب المشهد الروائى على ايقاع الزغاريد.



عزة للنشر والتوزيع
الخرطوم ـ السودان
ناشرون وموزعون ووكلاء دور نشر